الفصل الرابع
الحرب

كانت خطة العملية " بدر" ممتازة ، على رغم ان ما حققته من نجاح في البداية لم يستغل استغلالا كافيا . فقد كانت الايام الخمسة الاولى للعملية فترة نجاح للسلاح العربي كاد يبلغ حد الكمال ، ومهما قلنا من الثناء للرجال من كل الرتب الذين صنعوه ، فاننا لن نفيهم حقهم . ثم اعقبت هذه الايام الخمسة خمسة ايام من السكون اخذ الاسرائيليون في نهايتها عنصر المبادرة ، وتحولت الايام الخمسة الاخيرة من ايام القتال الخمسة عشر لمصلحة اسرائيل .

في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من يوم السبت ٦ اكتوبر (تشرين الأول) فتحت نيران ٤ آلاف من المدافع وقذائف الصواريخ والمورتار في الجبهة المصرية و ١٥٠٠ في الجبهة السورية ، وكان هذا الجحيم من نيران المدفعية مصوبا ومعززا بطلعات لـ ٣٠٠ طائرة . وبعد خمس عشرة دقيقة كان ٨٠٠٠ جندي يعبرون قناة السويس على ١٠٠٠ قارب من القوارب المطاط وسقط الحصن الأول من حصون خط بارليف في ايدي الجيش الثاني في الساعة الثالثة تماما ، وبدأ بعدها الكثير من هذه الحصون يتساقط تباعا . وفي هذا الوقت كان المهندسون يحطمون بمدافعهم المائية الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقتال ، واستطاعوا خلال اربع ساعات والنصف ان يفتحوا الثغرات في ٨٠ موقعا منه . وعند الساعة الخامسة وعشر دقائق سقطت الدفعة الأولى من الاسرى الضباط الاسرائيليين في ايدي الجيش الثاني شمالي الاسماعيلية . وفي الساعة السابعة والنصف ، كانت التشكيلات الأولى للجيشين المصريين ، قد تمركزت على الضفة الشرقية للقناة على جبهة عرضها ١٧٠ كيلومترا ، ونجح ثمانون الفا من الرجال في اثنتي عشرة موجة في أن يتوغلوا في سيناء على عمق يتراوح بين ثلاثة وأربعة كيلومترات ، ويثبتوا اقدامهم داخل منطقة خط بارليف الحصينة .

وكان لا بد لاحتلال هذه المواقع من عدم تمكين القوات المدرعة الاسرائيلية من الاشتباك مع من يقومون من رجالنا باحتلالها . ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك – كما تبين في ما بعد الا عن طريق مواجهة قوات العدو المدرعة بسلاح متحرك مضاد للدبابات يستطيع جندي المشاة ان يحمله بمفرده ، وقد ظل الضباط والجنود الذين عهد اليهم بهذه المهمة يركضون من دون توقف منذ اللحظة التي نزلوا فيها على الضفة الشرقية الى ان قطعوا مسافة الخمسة كيلومترات التي تفصل بينهم وبين المواقع التي سيحتلونها . ولم تظهر لهم الوحدات الاولى من المدرعات الاسرائيلية الا بعد ثلاث أو اربع دقائق من وصولهم الى تلك المواقع ، وكان دهشتها لحجم ودقة النيران التي قوبلت بها كبيرة ، كما ان الخسائر التي منيت بها في عرباتها المصفحة كانت فادحة .

ولم يكن نجاح السلاح في الجبهة السورية اقل في البداية من روعته في الجبهة المصرية . وقد استغلت القوات البرية السورية عنصر المفاجأة التامة في التغلب على الخنادق الاسرائيلية المضادة للدبابات ، وتقدمت بسرعة كبيرة ، وسقط العديد من المواقع الاسرائيلية الحصينة خلال الساعات الأولى للمعركة ، كما سقطت نقطة المراقبة الاسرائيلية في جبل الشيخ – بثروتها من المعدات الالكترونية المعقدة – في ايدي القوات السورية ... سليمة لم يمسها عطب ، ونقلت محتوياتها على الفور الى دمشق لفحصها واستعمالها في ما بعد . وقد سارع الاسرائيليون بشن هجوم مضاد استخدموا فيه الدبابات والطائرات ، لكن نيران المدافع السورية المضادة للدبابات وللطائرات انزلت بهم خسائر جسيمة . كذلك ، فقد صدت القوات السورية محاولة انزال للجنود قام بها الاسرائيليون في اللاذقية بغرض التخفيف من تركيز الهجوم عن طريق اجبار السوريين على سحب بعض قواتهم من الجبهة لاستخدامها في حماية تلك المناطق غير الحصينة في المؤخرة . وكان الهجوم السوري يتقدم في محورين رئيسيين ، ينقسم كل منهما بعد ذلك الى محورين . وعند منتصف ليل السبت ، كان اعنف الهجومين في اتجاه " فيق " و "

جسر بنات يعقوب " و " العال " قد وصل تقريبا الى المواقع المحددة له ، وان لم يتقدم الهجوم في الاتجاه الشمالي نحو " القلع " بمثل تلك السرعة .

وفي الساعة السادسة من مساء يوم السبت اتصل السفير السوفييتي فينوجرادوف تلفونيا يطلب موعدا لمقابلة الرئيس السادات. وتمت المقابلة في الساعة السابعة، ونشأ فيها سوء فهم حول امكان وقف اطلاق النار لم تتضح حقيقته الا بعد أيام عدة . ذلك ان الرئيس الاسد كان قبل بدء المعركة قد استدعى السفير السوفييتي في دمشق دوم محيى الدينوف لمقابلته، وأبلغه ان الموقف على الجبهة دقيق جدا بسبب التهديدات الاسرائيلية ، وان التوتر بلغ نقطة الغليان ، وحذر من ان القتال قد ينشب خلال ساعات . وقال السفير انه يريد ان يسأل عما اذا كانت هناك اية مساعدة يمكن حكومته ان تقدمها . وكانت لدى الرئيس ، بطبيعة الحال ، بعض مطالب عسكرية ابلغها السفير ، لكن السفير سأل عما اذا كان هناك ما يمكن ان يفعله في الميدان السياسي ، وقال : " اتريدوننا ان نقوم بأي اجراء في مجلس الأمن اذا حدث وانهار وقف اطلاق النار ثم اجتمع مجلس الأمن وعرض فيه اقتراح بوقف اطلاق النار ؟ " وكان رد الرئيس الأسد انه لا يجد ضررا في هذه الحالة من تقديم مشروع قرار بوقف اطلاق النار . ولعل تفكيره اتجه في تلك اللحظة الى انه اذا سار القتال لمصلحة سوريا ، فإن تقديم مشروع قرار بوقف اطلاق النار لن يؤثر على موقفه . أما اذا سار القتال لمصلحة اسرائيل ، فإن مشروع القرار ربما يصبح عندئذ مفيداً . وهكذا بعث محيي الدينوف بهذه المعلومات الى موسكو ، وابلغتها بدورها القاهرة . وكانت التعليمات التي تلقاها فينوجرادوف من بريجينيف عندما اتصل به تلفونيا هي : ١- ان يبلغ الرئيس السادات تهنئة الاتحاد السوفييتي على العبور الناجح والسريع للقناة . ٢- ان يبلغ الرئيس السادات انه ليس لدى السوريين – بعدما تأكد نجاح العبور – اعتراض على فكرة التقدم بمشروع قرار لوقف اطلاق النار . وطوال ذلك اليوم كان الاتصال بين الدولتين العظميين مستمرا ، وكان من الواضح ان الاتحاد السوفييتي – كما هو حاله ، دائما – كان أكثر اهتماما بتحركه السياسي المقبل ، في حين كان العرب اكثر انشغالا بالموقف العسكري الراهن .

وقد دهش الرئيس السادات حين سمع هذه المعلومات ، وسأل فينوجرادوف عن مصدرها ، وكان رده انه تلقاها من " موسكو " . وقال الرئيس السادات انه كان من الممكن ان يفهم الاقتراح بوقف اطلاق النار لو انه جاء من واشنطن ، لأن المعركة تسير في مصلحة العرب . ثم قال محتجا ان من المستحيل عليه ان يتصور وقف اطلاق النار بينما خمس من الفرق تعبر القناة الى سيناء ، والقوات المدرعة في طريقها اليها . وقال ايضا : " نحن نريد السلام ... لكن السلام لن يتحقق قبل ان يخرج آخر جندي اسرائيلي من سيناء " .

وعند منتصف الليل من يوم السبت كانت عشرة من الكبارى قد اقيمت عبر قناة السويس ، معظمها من طراز "ب م ب " السوفييتي . وفي العادة ، فان عملية اقامة كل كوبري منها تستغرق عشر ساعات، لكن براعة سلاح المهندسين المصري ومئات التدريبات التي أجريت على العبور خلال السنوات الست الماضية خفضت المدة الى ست ساعات . وكان كل كوبري من هذه الكباري مزوداً بـ ١٥ معدية تعمل كلها بسرعتها القصوى . واضافة الى الوحدات التى كانت تعبر القناة ، فإن قوات المظلات ووحدات الكوماندوس الخاصة كانت " ترش " كالملح فوق سيناء ... حيث قامت بقطع مواصلات العدو ونقط مراقبته، واستطاعت ان تجعل من منشآت البترول في ابو زنيمة وسدر وبلاعيم كتلة من اللهب، فحرمت اسرائيل من ابار البترول في جنوب سيناء بعدما ظلت تستغلها منذ استولت عليها في العام ١٩٦٧. واضافة الى ذلك ، فان هذه القوات قامت بغارة ناجحة على شرم الشيخ، كما فرض الاسطول حصاراً على باب المندب وتأكد بذلك زيف المزاعم الاسرائيلية بأن السيطرة على شرم الشيخ ضرورية لامن اسرائيل .

وبعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) وبينما اهتمام اسرائيل كله مركز على الخطر المحدق بخط بارليف، انزل بالمظلات من طائرات الهليكوبتر فوق سيناء ما يقرب من ٥٠ وحدة من وحدات الكوماندوس الخاصة، تضم كل وحدة منها نحو ٣٠ رجلا . وكان قائد احدى هذه الوحدات- وهو المقدم ابراهيم الرفاعي- قد اصبح اسطورة في الجيش المصري . فقد اشترك في ما بين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٣ ما يراوح بين ٨٠ و ٩٠ غارة على مواقع مختلفة في سيناء . وقبل بداية المعركة بأيام عدة انزل هو ورجاله في المظلات في مناطق بعيدة وراء خطوط العدو .وقد استشهد في اثناء عملية قام بها رجاله لوضع المتفجرات تحت أحد الكباري التي اقامها الجنرال شارون عبر القناة في الدفرسوار في المراحل الاخيرة للمعركة. وكان ساعتها يقف على احد الطرق بجانب الكوبري حين تلقى اصابة مباشرة من قذيفة دبابة اسرائيلية. وبعد استشهاده اصبح واحداً من ١٤رجلاً فقط منحوا- بعد استشهادهم- ارفع وسام للشجاعة في مصر، وهو: نجمة سيناء .

وفي خلال الساعات الأ ولى للمعركة كانت القوات الاسرائيلية لا تزال تترنح تحت وطأة صدمة المفاجأة . وسمعت القيادة المصرية قادة الدبابات الاسرائيلية يزأرون بالشكوى والحيرة تتملكهم من النيران التي بدت كأنها تنصب عليهم من كل مكان في الصحراء . واستقبلت القيادة المصرية بارتياح شديد ذلك القرار الذي اصدره الجنرال بيليد للطيارين- وأمكن التقاطه- يطلب اليهم فيه البقاء بعيداً عن القناة مسافة ١٥ ميلاً . فقد فسر القرار بأنه دليل على الخسائر الاسرائيلية في الجو التي لم تعد محتملة. وكانت هذه اول مرة تشعر فيها القيادة الاسرائيلية بأنها فقدت السيطرة في الجو، كما فقدت- على الارجح- السيادة فيه، ولعلها احست كذلك أن عنصر التكافؤ لم يعد متوافراً لها فوق منطقة المعركة .

وقبل فجر يوم ٧ اكتوبر (تشرين الأول) اصدرت القيادة الاسرائيلية في سيناء امراً الى جميع القوات العاملة في حصون خط بارليف خيرتها فيه بين الاستسلام (بعد تدمير كل الأسلحة والمعدات) او محاولة الانسحاب شرقاً والانضمام الى القوات في خطي الدفاع الثاني والثالث .

وفي الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح اليوم نفسه أبلغ مركز القيادة التكتيكي الاسرائيلي في ميتلا ان الوحدات المصرية تحاصر المنطقة تماماً . وكانت تلك اعمق نقطة توغلت فيها القوات المصرية خلال المعركة.

والى هنا سار تنفيذ خطة المعركة بدقة الساعة. والفضل في هذا النجاح الذي فاق اعظم احلام أولئك الذين صنعوا الخطة يجب ان يعود بلا شك الى القادة الشبان والى صف الضباط وجنود المشاة ، والمدفعية والمدرعات الذين افاض الكثيرين منهم بعد ذلك في الحديث عن الحياة التي احسوا بها تدب فيهم، بعد سنوات من التدريب الطويلة، وكيف انهم اصبحوا آخر الامر يعيشون حقيقة الحرب، واصبحت الفرصة متاحة أمامهم لمسح عار الهزيمة والذل الذي ظل الجيش المصري يئن منه طوال ست سنوات.
وخلال يوم الاحد استطاعت فرقة المشاة الـ ١٨ تحرير القنطرة شرق ، وتحقق بتحريرها وعد كان قائد الفرقة قطعه على نفسه للرئيس السادات . فقد كان الرئيس يبدي اهتماماً خاصا بمصير المدينة، لانها المدينة التي خدم فيها وهو برتبة بكباشي في سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ قبل الثورة . ثم جاءت الانباء في اليوم التالي بأن السوريين دخلوا القنيطرة .

ولقد كان الاسرائيليون يفاخرون دائماً بأنهم يحتلون المنطقة من " القنطرة الى القنيطرة"، فلما وصلت انباء احتلال القنيطرة بعث الرئيس السادات الى الرئيس الاسد برسالة قال فيها : "الف مبروك للقنيطرة والقنطرة...." . ومع ان هذه الرسالة ارسلت بالفعل الا انها لم تذع ابدا ، لما اتضح بعد ذلك من الانباء التي اذيعت عن احتلال السوريين للقنيطرة، كانت سابقة لأوانها .

وكانت الهجمات المضادة الاسرائيلية في الجبهة السورية قد بدأت تتزايد، وبلغت من العنف حدا افقد اكثر الهجومين السوريين نجاحا - وهو الهجوم الجنوبي نحو جسر بنات يعقوب والعال- قوته الدافعة. وكان من الواضح ان القيادة العليا الاسرائيلية قد قررت تركيز جهدها في الجو والبر في الشمال، بهدف جذب القوات السورية واخراجها من المعركة، بحيث تحول كل قواها بعد ذلك ضد المواقع المصرية في سيناء. ويوم الاحد عقد الرئيس السادات اجتماعا آخر مع السفير السوفييتي فينوجرادوف. ويبدو ان الرئيس لم يكن في يوم السبت قد اخذ الكلام عن وقف اطلاق النار مأخذ الجد ، لكن السفير في هذه المرة قال ان السوريين اتصلوا بموسكو بشأن خسائرهم في الدبابات ، وان موسكو ترى ان شحن دبابات جديدة من اوديسا (وهو المركز المعتاد للشحن) الى اللاذقية سيستغرق وقتا طويلاً ، وان على السوريين ان يتصلوا بالعراقيين ويحصلوا على الدبابات منهم ، على ان يقوم الاتحاد السوفييتي بتعويضها للعراقيين في ما بعد . وقد اكد فينوجرادوف صحة ما جاء في كلام الرئيس الأسد للسفبر السوفييتي في دمشق محيي الدينوف، من ان الرئيس الأسد لا يعترض على وقف اطلاق النار اذا قدم اقتراح به . وهكذا ، فانه عندما خرج السفير بدأ الرئيس السادات يكتب رسالة الى الرئيس الأسد .

قال الرئيس في الرسالة : ان وقف اطلاق النار الآن معناه ان تصبح اسرائيل في مركز اقوى مما كانت عليه عندما بدأ القتال ، وانه مصر على أن من الخطا تصور ان الهدف من القتال هو كسب ارض ، فالهدف الحقيقي منه هو استنزاف دم العدو ، وذلك يحتم علينا بالضرورة ان نكون مستعدين لتحمل خسائر جسيمة . وقال ايضا : " اني لا استطيع ان اوافق على وجهة نظرك ، واقترح عليك ان تدفع بفرقتك الاحتياطية المدرعة الى المعركة ، وتسحب في الوقت نفسه – اذا دعت الضرورة – احدى فرق المشاة من الجبهة للدفاع عن دمشق " .

وفي يوم الاثنين ٨ اكتوبر (تشرين الأول) واصلت الدبابات وقوات المشاة والمدفعية ، والمعدات الثقيلة والخدمات الادارية والطبية تدفقها عبر القناة الى سيناء في سيل متصل . وكانت عملية تعبئة قوات الاحتياط الاسرائيلي قد بدأت عندئذ في سيناء ، ودفع بها الى المعركة في هجوم من اربع شعب ، لكن الاسرائيليين ارتكبوا الاخطاء نفسها التي ارتكبها الجانب المصري في العام ١٩٧٠ . فقد كان عدد الوحدات التي استخدموها في الهجوم قليلاً ، وكان التنسيق بينها معدوما ، واسفر عن ابادة لواء الدبابات الـ ١٩٠ الذي يقوده الكولونيل عساف ياجوري ، واضطرت القوات الاسرائيلية بعده الى الانسحاب واتخاذ مراكز دفاعية على بعد يراوح بين ١٥ الى ٢٠ كيلومترا شرقي القناة . وكان فشل هذا الهجوم هو الذي أثار النزاع بين الجنرال كوتين والجنرال شارون .

وفي نهار ذلك اليوم تحرك لواء مدعم من الجيش الثالث لاحتلال حصن عيون موسى ، والعمل بوجه خاص على اسكات بطاريتي الدبابات الاسرائيليتين المزودة بمدافع بعيدة المدى عيار ١٥٥ ملليمترا ، واللتين قامتا بتدمير مدينتي السويس وبور توفيق خلال حرب الاستنزاف .

وكانت القيادة المصرية ترى ان الموقف اصبح يحقق لها الان جدارا دفاعيا قويا على الضفة الشرقية للقناة لابد ان تصطدم به أي قوات اسرائيلية تتقدم من وسط سيناء في منطقة المناورات بين الممرات والقناة . وكانت القيادة ترى ايضا ان تشدد القوات المصرية ضرباتها ضد قوات العدو كلما اشتدت محاولاته للهجوم عبره ، وكان هذا التكتيك في تقديرها افيد من التحول الى الهجوم .

لكن الصورة على الجبهة السورية كانت اقل اشراقا ، فالقوات الاسرائيلية هناك كانت استعادت عامل المبادرة ، وصدرت الاوامر الى القوات السورية بأن تتحول الى الدفاع ، وتركز على الاحتفاظ بالاراضي التي حررتها، وتستعد للصمود في وجه الهجمات الاسرائيلية المضادة التي لا بد آتية .

وفي يوم الا ثنين جاء رد الرئيس الاسد على البرقية التي كان الرئيس السادات قد ارسلها اليه في اليوم السابق . وقد نفى الرئيس الاسد انه يريد وقف اطلا ق النار، وقال انه حائر في فهم ما قاله فينوجرادوف للرئيس السادات، فالمعركة بالنسبة الى سوريا تسير سيرا حسنا، والقوات السورية تنزل بالعدو خسائر فادحة، فضلا عن انها حررت حتى الآن اكثر من نصف مرتفعات الجولان . كذلك ، فانه قال ان خسائر القوات السورية ليست بالضخامة التي يتطلب تعويضها الاستنجاد بالعراق ، وان في الاحتياط السوري ما يكفي لتعويضها. واكد الرئيس الأسد في رده ان اي امر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، كوقف اطلاق النار، لا تمكن اثارته قبل الاتفاق عليه بينهما كحلفاء .

وكعادتي اليومية في تلك الفترة، فاني توجهت، مغرب ذلك اليوم، الى مقابلة الرئيس في قصر الطاهرة. وكان سعيدا وفي حالة معنوية طيبة. وصعدت معه الى الطابق الثاني، حيث خلع بدلته العسكرية وارتدى البيجاما والروب دي شامبر قبل ان يجلس لتناول طعام الافطار. ورن جرس التلفون قبل ان نبدأ الأكل ، وكان السفير السوفييتي على الخط يبلغ الرئيس بالجسر الجوي للسلاح الذي يتوقع ان يبدأ قريبا. واذكر ان ا لرئيس قال لفينوجرادوف (بالانجليزية التي يتقنها فينوجرادوف تماما) : "حسنا.. حسنا.. بديع.. بديع ! قل للرفيق بريجنيف اني اشعر بالامتنان له من اعماق قلبي . قل لبريجنيف ان الاسلحة السوفييتية هي التي حققت معجزة العبور". وعندما انتهت المحادثة سألته عن رأيه في حقيقة موقف السوفييت، فقال انه يعتقد انه تبين لهم ان الحالة تمضي في اتجاه مرض جدا، وانهم يرون في ذلك فرصتهم لاستعادة معظم او كل هيبتهم في الشرق الاوسط . وقال : " لا اظنهم سيضيعون هذه الفرصة".

وبقيت مع الرئيس حتى ساعة متأخرة من الليل، فقد كان يشعر بعدم القدرة على النوم . وطلب ان يشاهد فيلما، واقترح ان يكون فيلما من افلام رعاة البقر، كما طلب الي ان اشاهد الفيلم معه، لكني كنت احس بارهاق شديد، واكاد لا اقدر على فتح عيني . وقد ضحك وهو يقول لي : " طيب.. اذهب لتنام ". ومررت بمكتبي في "الأهرام " قبل ان اعود الى منزلي لارى ان كانت هناك انباء جديدة، وعرفت ان الرئيس نيكسون قد طلب عقد اجتماع لمجلس الامن القومي . وطلبت الرئيس بالتلفون لابلغه النبأ ، وكان ساعتها لا يزال يشاهد الفيلم ، وسألني عما اذا كنت ارى في ذلك ما يعني ان نيكسون قد يبدأ اتخاذ اجراء قوي ضد العرب . فقلت: "لا اظن ذلك ، لأنه لو كان يريد حقيقة ان يتخذ منا موقف الشدة لما لجأ الى مجلس الأمن ، وهو يعرف انه عرضة لمواجهة " فيتو " من الاتحاد السوفييتي او الصين، يقيد يديه تماما " . وبدا ان الرئيس اقتنع بهذا التفسير.

وعند غروب يوم الثلاثاء كانت المراكز التي تم الاستيلاء عليها على الضفة الشرقية لقناة السويس قد عززت بنقطتي ارتكاز للجيش يراوح عمقهما بين ١٠ و ١٣ كيلومترا. وكان الهدف المبدئي من الحملة قد تحقق . ومن الانصاف ان نقول ان الجيش المصري والشعب المصري كانا يعيشان في ذلك اليوم اسعد لحظات حياتهما منذ أيام السويس في العام ١٩٥٦ .

لكن الايام الاربعة التالية كانت تحمل في طياتها قصة مختلفة . كان الهجوم خلال تلك الايام الاربعة قد فقد قوته الأولى الدافعة . وعلى رغم ان القوات المصرية في سيناء نجحت خلالها فى صد الهجمات الاسرائيلية عليها ، الا انها لم تنتهز الفرصة لشق طريقها نحو الممرات في قلب شبه الجزيرة . وكانت هذه الفترة هي التي يسمونها فترة " وقفة تعبوية " والتي اثارت نقاشا حادا بين القيادات السياسية والعسكرية المصرية والسورية لم ينته الى اتفاق بشأنه حتى الآن .

فقد كان السوريون يرون ان الهجوم المصري يجب ان يستمر الى ان تصل القوات المصرية الى الممرات ، وتكون القوات السورية قد وصلت عندئذ عند نهر الاردن وبحيرة طبرية ، لاستغلال نجاحها في التقدم نحو الناصرة . وعندها- وعندها فقط - يمكن ان يكون لفترة " الوقفة التعبوية " ما يبررها. اما وجهة النظر المصرية فكانت تقول انه كان من المتفق عليه اصلا ان تكون هناك " فترة وقفة تعبوية "

عقب اجتياز خط بارليف ، تتهيأ الفرصة خلا لها لاعادة تجميع القوات ، بحيث تكون جاهزة لصد هجمات العدو المضادة المتوقعة ، وبعدها يمكن ان يستمر التقدم نحو الممرات .

ولربما كان شبح الهزائم السابقة هو سبب احجام من كانوا يتولون القيادة عن الاقدام على اية خطوة تتسم بالمغامرة . وقد يكون السبب ان سلامة الجيش اهم في نظرهم من محاولة استغلال أي درجة غير مرئية من النجاح . وايا كان السبب فقد كانت هناك في الفترة ما بين يوم ٨ اكتوبر ويوم ١٠ اكتوبر (تشرين الأول) فرصة ... وضاعت . واعتقادي الشخصي انه لو كان التقدم نحو الممرات قد استمر والاستيلاء عليها قد تم ، لأمكن تحرير سيناء كلها ، مع ما يترتب على تحريرها بنصر كهذا ، من نتائج سياسية لا يمكن تقديرها .

وفي تلك الاثناء كانت الهجمات الاسرائيلية المضادة على الجبهة السورية تزداد شدة في البر وفي الجو على السواء ، وناشدت القيادة السورية المصريين ، القيام بعمل سريع لتخفيف الضغط عليهم . فقد دفعت القيادة الشمالية للقوات الاسرائيلية الى المعركة صباح يوم ٩ اكتوبر (تشرين الاول) بلواءين جديدين للدبابات . وفي ضوء الفشل امام المقاومة العنيدة غير المتوقعة من جانب القوات السورية في القطاع الشمالي والحجم الكبير للخسائر التي تكبدها العدو ، فإنه احال ليلة ٩ – ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) الى جحيم . فقد استمر سلاحه الجوي في غاراته على دمشق وحمص بقسوة بالغة في محاولة لاضعاف الروح المعنوية للشعب واسقاط النظام . وتحولت القنيطرة الى مسرح قتال وحشي تكبد فيه الجانبان خسائر فادحة . فقد كانت القنيطرة بالنسبة الى السوريين عاصمة لاقليم سوري ، لكن قيمتها في نظر الاسرائيليين كانت في موقعها الحيوي بالنسبة الى خططهم الدفاعية في منطقة الجولان المحتلة .

وبحلول يوم الاربعاء كانت القوات السورية في وضع صعب . فالهجمات الاسرائيلية المتصاعدة تنزل بها خسائر بالغة اظطرت القيادة السورية الى ان تدفع الى الميدان بالدبابات الـ ٥٠٠ التي تتكون منها فرقة الدبابات الثالثة ، والتي كانت ترابط حول دمشق وفي شمالها باعتبارها احتياطيا استراتيجيا . ووجه القائد العام للقوات المسلحة السورية نداء الى نظيره المصري يطلب فيه الرد على اسرائيل لضربها دمشق وحمص . لكن ذلك بدا أمرا صعبا . وعندئذ اتصل السوريون في هذا الشأن بالعراقيين فوافقوا في باديء الأمر ، لكنهم عادوا فاعتذروا بعدم توافر الوقت الكافي لقاذفاتهم للقيام بالعمل المطلوب.

وعلى ضوء هذه الظروف اصبحت العلاقات بين القيادتين في كل من القاهرة ودمشق مشدودة .

وفي ليلة ٩ اكتوبر (تشرين الاول) كان الرئيس السادات في قصر الطاهرة في انتظار نتائج معركة الدبابات المستعرة بعنف ، حين تلقى رسالة من السفير السوفييتي فينوجرادوف يطلب فيها مقابلته ، وتمت المقابلة ، في مكتب الرئيس ، وبدا الرئيس بعدها متوترا . فقد ذكر فينوجرادوف خلالها ان الموقف دقيق على الجبهة السورية ، وان السوريين خسروا حتى الآن عددا كبيرا من الدبابات بلغ ٦٠٠ دبابة ، وقال ان اجتماع مجلس الأمن الذي دعا الامريكيون الى عقده قد حان وان السوفييت يجدون انفسهم امام هذا الموقف في ورطة . فهم لا يزالون عند ظنهم ان السوريين يرغبون في وقف اطلاق النار ، لكنهم يعرفون ان المصريين لا يريدونه . لذا فهم حائرون في ما يفعلونه ، اذا ما قدم الى المجلس اقتراح بوقف اطلاق النار . ان موقفهم سيبدو غريبا سواء استخدموا حق الفيتو لوقفه أو امتنعوا عن التصويت عليه .

وطلب الرئيس السادات الى السفير السوفييتي ان يتوقف عن الخوض في الحديث عن نوايا السوريين ، وقال له انه تلقى رسالة من الرئيس الاسد نفسه ويعرف وجهة نظره تمام المعرفة ، وان المهم بالنسبة اليه (الرئيس) هو الجسر الجوي الذي وعده السوفييت به . وقال ان الامريكيين يفعلون كل ما يستطيعونه لتزويد الاسرائيليين بما يطلبون من سلاح ، ويريد ان يعرف ما الذي سيفعله السوفييت ؟ اذا

كانوا يريدون التراجع عن وعدهم فهم احرار وسيشكرهم على ما فعلوه ولن يجهر بالشكوى لأن الحقيقة كلها كفيلة بان تظهر .

وعندما اكد فينوجرادوف انه لا يسعى الى الضغط على مصر لوقف اطلاق النار ، قال الرئيس السادات انه يريد تحقيقا في موقف السفير السوفييتي في دمشق ، واضاف : " اريد تحقيقا رسميا .. واريد ان ابلغ بنتائجه " . وبعدئذ بدأت اعصابه تهدأ ، واكد للسفير مرة اخرى ان انتصارات العرب ستدعم الى حد كبير سمعة السلاح السوفييتي ومركز الاتحاد السوفييتي في الشرق الاوسط .

وبعد ذلك بقليل ، ذهبت أنا نفسي الى قصر الطاهرة ، وكان موعد الافطار يقترب . ولاحظت لمجرد ان دخل الرئيس ان ثمة ما ضايقه ، وسألته ، فذكر لي تفاصيل اجتماعه بالسفير السوفييتي ، واطلعني على مسودة خطاب يفكر في ان يوجهه الى الشعب عن طريق الاذاعة والتلفزيون ، وقال انه كان يفكر في القائه بعدما بدأ القتال ، ثم رأى ان يؤخره الى ان يتأكد من سير المعركة . لكن بداية الخطاب – الذي طلب مني ان أقرأه بصوت عال – بدت غير مناسبة . فقد كانت تقول : " يسعدني أن أكون معكم جميعا في هذه الساعة المجيدة من تاريخنا ... " . ولم اكمل .. فقد قاطعني الرئيس ليقول : " الحقيقة انها ساعة صعبة ؟ .. ان الجبهة السورية تتعرض لضغط شديد .. " وكان يتمشى في القاعة ذهابا وجيئة ، ثم قال : " لابد من تغييره .. ولنذهب الى الشعب ونقول له اننا سنقاتل الى النهاية . وفي استطاعتي ان اخاطبه كما خاطب تشرشل الشعب البريطاني في العام ١٩٤٠ " . ثم امسك سماعة التلفون وطلب الى الفريق احمد اسماعيل ان يحضر الى القصر .

وخرجت لاستقبل الفريق احمد اسماعيل ، وتركت الرئيس يملي رسالة للرئيس حافظ الاسد . وقد احتضنني احمد اسماعيل وهو يقول ان هذه هي المرة الأولى التي خرج فيها من تحت الأرض منذ ان بدأ القتال ، ثم راح يحكي لي عن وحدة رجال الكوماندوس التي استطاعت وحدها ان تدمر بلاعيم وابورديس ، وبعد ذلك انتقل الى الحديث عن دور العراق . فقد اوفدت الحكومة العراقية مبعوثا خاصا الى موسكو طلب من بودجورني ان يتوسط لدى الشاه ليخفف الضغط على الحدود الشرقية حتى تستطيع القوات العراقية ان تتقدم لمساعدة سوريا . وقد وعد بودجورني بان يتصل بالشاه ، لكنه اعرب عن دهشته لعدم مسارعة الدول العربية كلها الى مساعدة مصر وسوريا . وتساءل : " لماذا لا تساهم هذه الدول بكل ما تملك في المعركة ؟ لماذا حصل العراق والجزائر على كل هذا السلاح منا ؟ هل سيبدأ العراق حربا ضد الكويت .. أو تبدأ الجزائر حربا ضد المغرب ؟ ما الذي تنتظرونه ؟ ثم وجه الى المبعوث العراقي التحذير نفسه الذي وجهه فينوجرادوف في القاهرة ، وقال فيه انه لمجرد ان تحقق اسرائيل نصرا في الجبهة السورية ، فإنها ستركز كل طاقتها ضد مصر .

وكنت أنا نفسي متلهفا على معرفة حقيقة الموقف ، فاتصلت بفينوجرادوف ورتبت معه لقاء يتم في منزله في ساعة متأخرة من ذلك المساء ، ووصلت الى المنزل في الساعة العاشرة ، وكان سكرتير السفير في انتظاري في الحديقة المظلمة . وكان الظلام يسود المنزل كله بسبب حالة الاظلام في البلاد لدواعي الحرب ، لكني سمعت انغام الكونشرتو الرقم ٢ لرحمانينوف تنبعث من البيانو ، ودخلت من باب يؤدي الى قاعة استقبال صغيرة على الجانب الايمن للمنزل ، واستطعت ان ارى السفير يلعب البيانو على ضوء شمعة واحدة . وبقيت واقفا حيث انا نحو ثلاث أو اربع دقائق اصغي الى الموسيقى حتى احس السفير بان هناك من يقف على قرب منه فرفع رأسه ، وسمعني اقول وانا اصفق : " برافو " . ورد بابتسامة : " ان هذه هي الطريقة التي الجأ اليها للاسترخاء ... وهي – في ساعات التوتر – الطريقة الوحيدة التي استطيع ان استرخي بها " . ثم راح يحدثني عن المقابلة العاصفة التي تمت بينه وبين الرئيس ، وقال ان بريجنيف وجريتشكو اتصلا به تلفونيا وانهما كليهما يعتقدان ان اسرائيل تشدد الضغط على سوريا في محاولة لاخراجها من المعركة ، وبعدها تركز كل قواتها ضد مصر . وقال : " لقد كنت طوال اليوم في اجتماعات مستمرة مع ملحقينا العسكريين . واقول لك الحق ، انهم غير مرتاحين الى

النحو الذي يتطور اليه الموقف . ولست ادري السر في عدم تقدم قواتكم . لماذا لم تدعموا مكاسبكم وتبدأوا الاندفاع الى الممرات ؟ ان هذا ليس بالأمر المنطقي الذي يجب على جيشكم ان يفعله فقط ، لكنه يساعد ايضا على تخفيف الضغط عن السوريين " . ثم قال ان الوقت ضيق جدا امام العرب للحصول على النتائج ، فالزمن المحدد للقتال محدود ، ولا بد للعرب من ان يعدوا انفسهم للمرحلة التالية .. وهي المرحلة السياسية . وقال ان من بين الاسئلة التي وجهها اليه بريجنيف بالتلفون في ذلك اليوم :" ما هي حدود اهدافهم المحدودة ؟ " . (كان الرئيس السادات لا يزال يؤكد للسوفييت ان هذه حرب " اهداف محدودة ") واكد لي انه ليس هناك أي سبب على الاطلاق للشكوك التي اعرب عنها الرئيس السادات من ان الاتحاد السوفييتي يتراجع نتيجة للخوف ، وقال ان العكس صحيح لأن الجسر الجوي لمصر وسوريا قد بدأ بالفعل . وقلت لفينوجرادوف ان الامريكيين سمحوا للاسرائيليين منذ اول يوم من ايام القتال بان ينقلوا في طائراتهم ما يشاؤون من السلاح والعتاد من الولايات المتحدة ، وان شركة "العال " الاسرائيلية اوقفت كل رحلاتها حتى تتمكن من نقل معدات الحرب الى اسرائيل . فرد فينوجرادوف أنه سيكون من الصعب الاستمرار في الجسر الجوي اذا كانت احدى الدول العربية تريد وقف اطلاق النار، بينما الاخرى تعارضه. ثم قال : " ان في استطاعتنا ان نفعل اي شيء، لكن لا بد لنا من ان نعرف بالضبط ما المطلوب منا ان نفعله ".

وذكر فينوجرادوف انه وخبراءه العسكريين يشعرون بأشد القلق تجاه الموقف العسكري، ويرون ان كثافة حشود القوات المصرية فوق شريط من الارض محدود في الضفة الشرقية يعرضها لخطر كبير. وقال: " ذلك لانه اذا بدأ الاسرائيليون عملية ضرب المنطقة، فان خسائركم ستكون اسوأ من اي شيء تعرضتم له في العام ١٩٦٧". وقد حاولت طوال كلامه ان اسمعه برغبة شديدة في الفهم والتعاطف ، فقد كان من الواضح ان الرئيس ضغط عليه بشدة في اثناء اجتماعه به بعد الظهر، ولا سيما عندما وجه الى الرئيس سؤالا اخيرا عما يسعى الى تحقيقه سياسيا من القتال ، لان السوفييت- كما كان حالهم دائما- كانوا يفكرون في الخطوة التالية التي يجب عليهم ان يخطوها. وقد وجه الرئيس اليه نظرة قاسية وقال: "انك الان تتحدث الى القائد الاعلى للقوات المسلحة. وانا لم اسمع سؤالك السياسي لاني اعتقد ان شاغلي الاول يجب ان يكون المعركة والقتال . واذا كنت تريد ان تتحدث عن الموقف السياسي فاذهب وناقشه مع الدكتور فوزي ". وسألني فينوجرادوف رأيي فقلت له ، ان عليه بالتأكيد ان يقابل الدكتور فوزي كما اقترح عليه الرئيس . وقد قابله بالفعل في اليوم التالي .

وعدت الى بيتي من منزل السفير السوفييتي مستغرقا في تفكير عميق . ذلك اني سمعت قبل بضع ساعات في اثناء مناقشة للموقف مع اثنين من كبار خبرائنا العسكريين تأكيدات أن الموقف العسكري "مثالي " وان الاسرائيليين يحشدون قواتهم المدرعة في منطقة بين الممرات والقناة ، مما لا يتيح لهم الا مساحة محدودة للمناورة ، ويمكن قواتنا من ان تضربهم بقسوة . وفي الحقيقة ، فان اللواء حسن ابو سعدة قائد فرقة المشاة الثانية التي كانت اول من اشتبكت مع القوات الاسرائيلية على نطاق واسع واحد خيرة القادة الذين ظهروا في هذه الحرب ، كان قبل ذلك بساعات قد اسر قائد اللواء الاسرائيلي ١٩٠ المدرع بعدما دمره تماما .

لكن ما سمعته من الجانب السوفييتي عزز تصوري بالنسبة الى الممرات ، ذلك اني كنت اعتقد دائما انه لا بد لنا من ان نتقدم نحو الممرات ونحتلها ، حتى لا نعرض قواتنا لهجمات العدو اذا تركناها في العراء بين القناة والممرات .

واتصلت بالرئيس تلفونيا في قصر الطاهرة فقيل لي انه خرج مع ابنته وخطيبها في جولة في قلب القاهرة ليحس بنبض الجماهير ويشعر بشعورها . وتركت رسالة ارجوه فيها ان يتصل بي . واتصل بي بالفعل في الساعة الواحدة والنصف صباحا . وقلت له اني اجتمعت مع فينوجرادوف، ونقلت اليه تقييم السفير وهيئة خبرائه للموقف . ورد الرئيس انه مختلف معهم ، وقال : " وكما قلت لحافظ الاسد، فان

الارض ليست مهمة، انما المهم هو استنزاف العدو . وانا لا اريد ان ارتكب خطأ الاندفاع الى الامام بسرعة كبيرة لمجرد كسب المزيد من الارض . ولا بد لنا من ان نجعل العدو ينزف ". وكان من العسير علي ان انام بعد ان اويت الى فراشي لان الآراء المتعارضة حول الطريقة التي يجب ان تدار بها المعركة كانت تدور... وتدور في ذهني .

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي اتصلت تلفونيا بالفريق احمد اسماعيل وابلغته وجهة نظر السوفييت حول ضرورة تقدم قواتنا لاحتلال الممرات . فقال : " اتعرف ".. تلك كانت نيتي.. لكنه لا بد لنا الان من تعديل خططنا نظرا الى الوضع على الجبهة السورية . ذلك انه لا بد لنا ، اذا ما تحول العدو وركز كل هجماته علينا ، من ان نتجنب بأي ثمن ان تكون قواتنا منتشرة بطريقة خطيرة".

وفي يوم الخميس ١١ اكتوبر (تشرين الاول) كان السوريون لا يزالون يفقدون ارضا في القطاع الشمالي، بينما كان الاسرائيليون يضاعفون من هجماتهم ويشددونها ويتوغلون مسافة كبيرة على طريق القنيطرة – دمشق . وبدا في تلك الاثناء ان تدخل العراقيين وشيك . فقد تلقى الرئيس السادات رسالة من الرئيس العراقي احمد حسن البكر يقول فيها انه ظل طوال اليومين الماضيين يحاول عبثا الاتصال بالقاهرة ، وانه لا يجد وسيلة على الاطلاق للاتصال بدمشق ، ويرجو من الرئيس السادات ابلاغ الرئيس الاسد ان العراق يضع تحت تصرف سوريا اربعة اسراب من الطائرات ، وان القواعد الجوية المتقدمة في العراق مفتوحة لاستخدامها من جانب القوات الجوية السورية والاردنية .

وفي ذلك اليوم نفسه، بعث ياسر عرفات ببرقية الى الرئيس السادات يقول فيها ان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تحاول بكل الوسائل ان تدفع بوحدات من رجال المقاومة الى منطقة الاغوار، يمكن ان يكون في اشتراكها ما يؤدي الى فتح جبهة ثالثة . كذلك ، فان ابو اياد اتصل تلفونيا بالرئيس ليقول ان ياسر عرفات ابلغه ان هناك ١٠٠٠ من رجال المقاومة يقفون على الحدود منذ أربع وعشرين سا عة في انتظار اذن من السلطات الاردنية بعبور الحدود الى منطقة الاغوار، وان السلطات الاردنية ترفض التصريح لهم بالدخول ، وهم يرجون الرئيس السادات الاتصال بالملك حسين لمنحهم الاذن . لكن الرئيس كان يشك في احتمال الوصول الى نتيجة تذكر في مثل هذا الاتصال ، وكان تصوره ان الملك حسين لن يدخل المعركة ، الا بعد ان يتأكد تماما من ان الاسرائيليين قد انهكوا الى درجة لا تمكنهم من توجيه ضربات كبيرة اليه.

وفي الوقت نفسه كان الاحتكاك لا يزال مستمرا مع القذافي ، وقد تأثر الرئيس السادات مما صرح به القذافي علانية من انه غير موافق على الخطة الشاملة للهجوم . وكانت وصلت من القذافي برقية لم يكن لها تأثير يذكر في تحسين الموقف . كانت البرقية تقول : " تحياتي . ابعث اليك بكل ما نملك من القذائف المضادة للطائرات ومعها حامية طبرق . كما ان الاوامر صدرت الى لواء مدرع بأن يتحرك الى القاهرة فورا . فضلاً عن ان الاسواق والمخازن جردت مما فيها . وقد بلغني انك تأثرت لبعض ما نقل عني اني قلته . وحقيقة ما قلته هو : انه حتى ولو سارت المعركة في غير مصلحتنا ، لا سمح الله، فان ذلك سيكون نتيجة لتفوق اسلحة العدو، لا نتيجة اي قصور من جانب جنودنا . ويكفي ان الجندي الاسرائيلي يفر الان امام الجندي المصري . ان ذلك ليس نصرا عظيما للشعب المصري وحسب، لكن له اهميته الكبرى خارج مصر. (ولا يمكنني ان اتصور اي شيء يغاير ذلك في الوقت الحاضر) . لكني اود ان ابلغك، يا سيدي الرئيس، ان شعبنا يشعر بالاستياء لعدم ذكر اي شيء في كل ما تذيعه اذاعات القاهرة عن مساهمته السياسية في المعركة، بينما تبالغ هذه الاذاعات في كل ما تقوله عن مساهمة الملك فيصل . ان ليبيا لا ذكر لها على الاطلاق . وهذا أمر يبعث على الاسف يا سيدي الرئيس، لكن المهم الان هو ارادة القتال . كان الله معك في هذا الوقت . القذافي " .

وبعد ظهر يوم ١١ أكتوبر (تشرين الاول) كنت في قصر الطاهرة في انتظار لقاء الرئيس حين دخلت السيدة قرينته. ان هذه السيدة قامت خلال الحرب بدور شهم . كانت دائما مع الجنود في المستشفيات تحمل الي الرئيس خطاباتهم ورسائلهم المرحة التي كان لها تأثير كبير في تشجيعه. كنت منشغلا في الحديث مع عبد الفتاح عبد الله وزير شؤون الرئاسة عندما خرج الفريق احمد اسماعيل من مكتب الرئيس. وكان هناك طبق من الفاكهة على مائدة قريبة ، اخذ منه الفريق احمد اسماعيل - الذي لم يكن لديه متسع من الوقت يأكل فيه خلال الايام الخمسة الماضية- عنقوداً من العنب راح يأكل حباته وهو يلف ويدور في الغرفة ويحكي لنا عن المعركة، ويعيد ويكرر قصة الاستيلاء على خط بارليف وعن انهيار الجنرال جونين . وفي اثناء ذلك استدعيت لمقابلة الرئيس ، فدخلت مكتبه، ووجدته متعبا يخلع بدلته العسكرية ويرتدي بيجاما رمادية اللون مخططة . قال انه يعتقد ان الموقف على الجبهة السورية بدأ يتحسن، وان الامدادات تتدفق هناك، بعضها من العراق . وقال انه ابلغ الاتحاد السوفييتي ان اي اسلحة مرسلة الى مصر يمكن ان تفيد منها سوريا ، يجب ان تحول الى دمشق . وقال ايضا انه تلقى رسالة من الملك حسين عن طريق رئيس الاركان الاردني تقول ان الملك ضد فكرة فتح الجبهة الاردنية، لان بلاده تفتقر الى وسائل الدفاع الجوي ، وانه لذلك يفضل ان يبعث بوحدات من جيشه لتقديم العون في الجبهة السورية. وهنا دخل الفريق احمد اسماعيل الغرفة. وكان بادي السعادة . فقد تلقى رسالة بأن السوريين يحتوون الهجوم الاسرائيلي بنجاح . وقال له الرئيس : " لقد عرفت انها انباء طيبة لمجرد ان رأيت تعبير وجهك " . ثم رن جرس التلفون ، وكان المتحدث هو الرئيس الجزائري هواري بومدين . قال انه سمع الخطاب الذي القاه دافيد اليعازر وقال فيه : " اننا سنضربهم.. وسنهزمهم.. وسنحطم عظامهم ". وقال بومدين : " يبدو لي انهم بدأوا يفقدون اعصابهم " .

وكان من بين الانباء الطيبة التي وردت في تلك اللحظة ايضا ان الشيخ زايد بن سلطان حاكم ابو ظبي (ورئيس دولة الأمارات) الذي كان في لندن في ذلك الوقت ، قد حول الى مصر مبلغ ١٠٠مليون دولار. وكان الرئيس في حالة نفسية طيبة. قال لي انه سيصلي الجمعة في مسجد صغير كان صلى فيه وهو في الرابعة من عمره عندما جاء الى القاهرة مع والده لاول مرة . وقال انه صلى في ذلك المسجد في الاسبوع الماضي من دون ان يلحظه احد. وقال : " ان المسجد لا يزال كما كان عليه تماما منذ خمسين عاما، باستثناء انه كان عند ذاك يضاء بالشموع ، اما الان فهو يضاء بالكهرباء" .

وكان الجو في قصر الطاهرة يتسم بالتفاؤل الشديد ، وراح الحديث يدور حول ما سنفعله بعد انتهاء المعركة. وكنت اشعر بأن هناك اسئلة كثيرة بحاجة الى الاجابة. كما اني كنت قلقا بالنسبة الى الموقف الدولي .

ولقد قال لي كيسنجر في ما بعد ان الامريكيين كانوا يظنون في الاصل ان الاسرائيليين سيكونون في خلال ٤٨ ساعة من بدء القتال في موقف يمكنهم من القيام بهجوم مضاد مدمر ضد القوات المصرية في سيناء . وان امريكا انما تقدم الينا المساعدة باقتراحها وقف اطلاق النار وانسحاب الجانبين الى خطوط ما قبل يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) . فقد كان التصور الامريكي انه اذا لم يصدر قرار بوقف اطلاق النار ولقيت مصر الهزيمة العسكرية الساحقة التي يتوقعها الامريكيون لها ، فانهم سيجدون انفسهم عندئذ امام احد تطورين، كليهما غير مرض بالنسبة اليهم . فاما ان يتدخلوا لكبح جماح اسرائيل ، واما ان يضطر المصريون الى الالتجاء الى السوفييت لانقاذهم ، مع ما يعنيه ذلك من عودة السوفييت الى مصر في مركز اقوى بكثير من قبل . لكن الصورة تغيرت . فقد ادرك الامريكيون ان مصر ليست في خطر يعرضها لهزيمة اخرى مفاجئة نكراء ، بل على العكس فان القوات المصرية قدمت عرضا رائعاً. وكان كيسنجر- حتى قبل ان يتولى منصب وزير الخارجية - على اتصال بحافظ اسماعيل عن طريق شبكات الاتصال المغلقة . وقد بعث الى حافظ اسماعيل يوم ٩ اكتوبر (تشرين الأول) . برسالة عن طريق تلك الشبكات على نمط الرسالة نفسها الذي سلمها الى الدكتور محمد حسن الزيات في واشنطن .

كانت الرسالة تقول : " حسنا.. انكم قلتم كلمتكم، ولكن الى أين نمضي من هنا ؟ اننا لا يمكننا ان نتوقع استمرار الموقف الحاضر لوقت طويل ، وحين يتغير ، فإنه سيتغير لغير مصلحتكم " . وفي اليوم التالي بعث اليه حافظ اسماعيل برد على رسالته املاه الرئيس السادات بنفسه .

وقد تضمن الرد خمس نقاط :
١- يجب ان يكون هناك وقف لاطلاق النار يعقبه انسحاب في زمن محدد ، وتحت اشراف الامم المتحدة ، لجميع القوات الاسرائيلية الى ماوراء خطوط ما قبل ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .
٢- ان حرية الملاحة في مضايق تيران يجب ان تكفل بوجود للأمم المتحدة في شرم الشيخ لفترة محددة.
٣- بعد الانسحاب الكامل للقوات الاسرائيلية كما هو مبين في النقطة الاولى ، يتم انهاء حالة الحرب مع اسرائيل .
٤- بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من قطاع غزة توضع المنطقة تحت اشراف الأمم المتحدة الى حين اتاحة الفرصة لسكانها لممارسة حقهم في تقرير مصيرهم واتخاذ قرار بشأن مستقبلهم .
٥- خلال فترة محددة بعد انهاء حالة الحرب ، يعقد مؤتمر سلام تحت رعاية الامم المتحدة تحضره كل الاطراف المعنية ، بما فيها الفلسطينيون ، وكل الدول الاعضاء في مجلس الأمن . ويبحث المؤتمر كل المسائل المتعلقة بالسيادة والامن ، وحرية الملاحة .

ومساء يوم الجمعة ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) ، طلب سير فيليب آدامز السفير البريطاني في القاهرة مقابلة الرئيس . واستقبله الرئيس عند منتصف الليل وتسلم منه رسالة من ادوارد هيث رئيس الوزراء البريطاني يطلب فيها من مصر الموافقة على وقف اطلاق النار في المراكز الحالية ، ويشير الى ان ذلك تنازل من اسرائيل اجبرت على الموافقة عليه . ونوقشت الرسالة في صباح اليوم التالي ، وكان الاجماع ان مصر لا يمكن ان تقبل وقفا لاطلاق النار في الوقت الذي تتقدم قواتها فيه ، ولاسيما ان هجوما كبيرا من المقرر أن يبدأ على الجبهة المصرية في اليوم التالي . وقد تلقى السفير البريطاني الرد من اسماعيل فهمي وزير الخارجية ان مصر لا يمكن ان تقبل وقف اطلاق النار الا اذا قامت اسرائيل بخطوة ايجابية تبين انها بدأت تجلو عن المناطق التي احتلتها في العام ١٩٦٧ . كما ابلغه الوزير النقاط الخمس التي ارسلت الى كيسينجر .

وقد استمرت " الوقفة التعبوية " طوال ايام ١٠ و١١ و١٢ و١٣ اكتوبر (تشرين الاول) . وبحلول مساء يوم ١٣ كان ما يمكن ان يسمى المرحلة الأولى من المعركة التي حققت مصر فيها نصرا مذهلا قد انتهت . وكان المفروض ان يكون يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) هو يوم اطلاق المدرعات المصرية في زحف نحو الممرات .

وقد انقسمت الآراء بين ضباط القيادة في القيادة العامة والقيادات التابعة حول الهجوم . فقد كان البعض يرون ان اللحظة المثالية لم تنتهز ، ولكن لا تزال هناك فرصة طيبة للتقدم ، وربما استطعنا بتشديد الهجوم ان نعوض الزمن المفقود . لكن البعض الآخر كان يرى ان الفرصة ولت وان الوقت متأخر للقيام بالهجوم ، ومن الافضل ان نركز على مراكزنا الدفاعية في الضفة الشرقية للقناة .

وكانت القوات الاسرائيلية التي فقدت توازنها حلال الثماني والاربعين ساعة الاولى بفعل الضربات الشديدة التي تلقتها ، قد بدأت تفيق من الصدمة . ولم يكن الزحف المصري في مولده ، في حين ان الموقف على الجبهة السورية كان يثير القلق ، وقد اتسمت الرسالة الثالثة عشرة من الرسائل الي بعثت بها دمشق تناشد فيها مصر العمل على تخفيف الضغط الاسرائيلي عنها بقدر أكبر من الحدة .

وكجزء من الاستجابة لهذه النداءات صدرت الاوامر يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الاول) الى قائدي الجيشين الثاني والثالث ببدء هجوم في الاتجاه الشرقي يستخدمان فيه القوات المدرعة ، واستخدام قوات

المشاة في الدفاع عن نقط الارتكاز التي تم الاستيلاء عليها عند القناة . وكان الموقف يشابه في بعض نواحيه موقفا آخر في واحدة من معارك احد شهور اكتوبر (تشرين الاول) اتخذه قائد حذر آخر هو الجنرال منتجومري الذي اطلق قواته المدرعة بعد تسعة ايام استغرقتها في تحطيم تحصينات العدو ، واحتفظ بقوات المشاة في المؤخرة تحافظ على الميزان الاستراتيجي في مسرح العمليات . وقد يكون حذر مونتجومري انعكاسا لاهتمامه بتجنب الكارثة التي تعرض لها الجنرال ريتشي . تماما كما كان حذر الفريق احمد اسماعيل انعكاسا لانشغاله بالكارثة التي تعرض لها المشير عبد الحكيم عامر في العام ١٩٦٧ .

وكان الهدف من الهجوم ان تقوم قوات الجيشين المدرعة بالتوغل مسافة ٣٠ كيلومترا نحو المخارج الغربية للممرات في سيناء والاستيلاء على الطريق الجانبي الذي اقامه الجيش الاسرائيلي ، بحيث يتم تحييد الاحتياط الاسرائيلي المرابط حول الطريق . كذلك، فانه كان على المدرعات ان تمنع تقدم المدرعات الاسرائيلية من مناطق الاحتياط الى منطقة العمليات ، بحيث تتهيأ الظروف الملائمة امام القوات المصرية لتبدأ تقدمها الاخير شرقا . لكن ما كان متاحا امام مصر ان تنجزه يوم ٧ اكتوبر (تشرين الأول) لم يعد متاحا لها ان تنجزه يوم ١٤ اكتوبر (تشرين الأول) .

فلمجرد ان بدأت المدرعات المصرية تقدمها في الساعات الاولى من صباح يوم الاحد، وابتعدت عن الغطاء الذي توفره لها وسائل الدفاع الجوي اصبحت هدفا للضربات الاسرائيلية من الجو. كذلك، فان الاسلحة المضادة للدبابات والقذائف المحمولة بطائرات الهليكوبتر التي كانت اسرائيل قد تسلمتها اخيرا من امريكا استطاعت ان تلحق اضرارا شديدة بالدبابات المصرية. وعلى رغم ذلك، فان عددا كبيرا من قادة الدبابات المصريين وجنودها شقوا طريقهم الى الامام بشجاعة منقطعة النظير في وجه هذا الغزو لميدان المعركة من جانب هذه الاسلحة التي ابتكرتها التكنولوجيا الامريكية . ولم يحدث للحظة واحدة ان انخفضت روح القتال لدى الجنود المصريين عن الذروة التي كانت عليها .

وكما حدث في الهجوم المضاد الاسرائيلي يوم ٨ اكتوبر، (تشرين الاول)، فان الهجوم المصري بدأ من اربع شعب بالطريقة المتدرجة نفسها غير المنسقة . واستخدمت في تعزيزه وحدات من فرقتي الدبابات اللتين تتخذان مواقعهما غربي قناة السويس كاحتياط عام . وكان ذلك اجراء نجمت عنه في ما بعد نتائج خطيرة. وقد فسرت حكومة اسرائيل، وكذلك حكومة واشنطن، تصاعد هذا الهجوم بأنه دليل على ان عملية الهجوم الاخير قد بدأت . واستمر الجسر الجوي لنقل السلاح الى اسرائيل بقوة دفع متزايدة، وكانت الدبابات والمدفعية الامريكية تنقل بالطائرات الى ميدان القتال مباشرة . وفي تلك الاثناء كان الامريكيون والاسرائيليون قد عرفوا ان احتياط مصر الاستراتيجي قد دخل المعركة، بعدما عبرت القناة الى سيناء الفرقة المدرعة الحادية والعشرون التي كانت تتخذ مواقعها خلف الجيش الثاني، كما عبرها لواء من الفرقة الرابعة التي كانت ترابط خلف الجيش الثالث .

وقد استطاعت دقة تصويب القذائف المضادة للدبابات التي وصلت حديثا الى ميدان القتال ان توقف تقدم القوات المصرية على مسافة تراوح بين ١٣ و ١٥ كيلومترا من نقطة بدايته ، مع تكبيدها خسائر كبيرة . وتلقت الوحدات المصرية المهاجمة بعد ذلك امرا بالتراجع الى الخطوط التي بدأت منها الهجوم .

ومن المفارقات ان الموقف على الجبهة السورية الذي يتحمل جزئيا على الاقل مسؤولية الهجوم المصري الذي توقف كان قد بدأ يوم ١٤ أكتوبر (تشرين الاول) يظهر الدلائل على التحسن . وخلال ليلة ١٣/١٢ أكتوبر (تشرين الاول) كانت اسرائيل تستعد لتوجيه الضربة القاضية التي وعد بها الجنرال اليعازر ضد سوريا ، وحشدت جميع القوات المتوافرة لديها لتوجيه هذه الضربة ، وتلقت من رئيس الاركان الاسرائيلي امرا مشابها للامر الذي اصدره ا لجنرال مونتجومري لقواته في العلمين وقال فيه: " صيد طيب.. أيها السادة ". وكانت القوات السورية تعيد تجميع صفوفها، وساعدها في تلك اللحظة

المؤاتية ان اللواء الثاني عشر العراقي كان وصل الى ميدان القتال ودخل المعركة على الفور في منطقة نوى ، وبدأ التقدم الاسرائيلي في الجنوب يبطىء ، ودمرت للاسرائيليين فيه ٢٠ دبابة و٤٠ مدرعة . ومن حسن الحظ ان اللواء الثاني عشر العراقي كان ايام نشاط القيادة العربية الموحدة قد اشترك في المناورات في هذه المنطقة ، وكان الكثيرون من ضباطه وجنوده على معرفة بالارض التي سيقاتلون فيها.

وفي يوم ١٣ اكتوبر (تشرين الاول) استمر التقدم الاسرائيلي في اتجاه دمشق ، وظهرت له جوانب اكثر خطورة . فقد بدأت المطارات ومواقع الصواريخ السورية تتعرض لضرب شديد من الجو، ولكن- في الوقت الذي كانت الحاجة اكثر ما تكون مساسا اليه- ظهر على مسرح القتال تشكيل جديد لتدعيم الوحدات السورية التي اعادت تجمعها . وكان هذا التشكيل هو لواء الدبابات الاربعين للجيش الاردني. وكان بدوره على معرفة بأرض المعركة . واتخذ مواقعه على الفور الى يسار اللواء العراقي . وهنا رأينا قيادة عربية موحدة حقيقية تمارس عملها في الميدان، حيث كان العراقيون والاردنيون والسوريون يقاتلون جنبا الى جنب. وكان المغاربة مشتركين في القتال منذ البداية . كما انضمت اليهم يوم ١٥ أكتوبر (تشرين الاول) كتيبة آلية سعودية . وقد كان لهذه التعزيزات اثرها في تهديد الجناح الايمن للتقدم الا سرائيلي نحو دمشق ، كما ان هجوم الجيش المصري في سيناء نجح في سحب بعض الوحدات الاسرائيلية من المعركة في الجبهة السورية . وعلى رغم ذلك، فان الغارات الجوية الاسرائيلية ازدادت حدة خلال يومي ١٧و ١٨ أكتوبر (تشرين الاول) ، وشهد الصباح المبكر ليوم ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) محاولة اخرى للتقدم في الطريق الى دمشق . لكن المحاولة صدت ودمر للاسرائيليين فيها او اعطب ٥٢ دبابة و ١٧ مدرعة .

ونجت دمشق . ولست اعتقد ان دخول دمشق كان ممكنا كما صورت القيادة الاسرائيلية ، بل ولست اعتقد ان دمشق كانت هدفاً . وحتى على فرض ان اسرائيل كانت تملك القوة لتحقيقه - وهذا فرض جدلي يصعب اثباته - فان ا سرا ئيل تعرف مقدما ان السيطرة على هذه المدينة ا لمعروفة بوطنيتها الشديدة والتي يسكنها مليونان من البشر، كان سيتطلب اعدادا كبيرة من القوات . يضاف الى ذلك ان الانفجار في العالم العربي ورد الفعل المحتمل لمثل هذا الموقف في بقية انحاء العالم ، ولا سيما في الاتحاد السوفييتي، كانا ولا شك كفيلين بأن يجعلا الاسرائيليين يترددون في الاقدام عليه حتى ولو كان هدفا سعوا الى تحقيقه ، او كان في متناول ايديهم ، وهو امر موضع شك كبير.

وبعد فشل الهجوم المصري الذي بدأ يوم ١٤ أكتوبر، (تشرين الاول) ، صدرت الاوامر للجيشين في شرقي القناة ان يتخذوا مراكز دفاعية ، ويتشبثوا بالأرض التي احتلوها ، ويقاوموا هجمات العدو. وكانت وجهة نظر الرتب العليا من ضباط القيادة المصرية ان من الأفضل العودة الى الخطة البديلة التي تقوم على اساس جعل الاسرائيليين يضربون رؤوسهم ويحطمونها في جدار النيران المنصبة عليهم من نقط الارتكاز بدلاً من المجازفة بالاشتباك معهم في معركة متحركة في عمق سيناء اغلب احتمالاتها ان تكون لهم اليد الطولى فيها .

ذلك ان المبدأ الذي اتبعته اسرائيل منذ قيامها هو نقل المعركة دائما الى ارض العدو، وبا عتبار ذلك خير وسيلة للدفاع عنها . لكنها لم تطبق هذا المبدأ اوتوماتيكيا على المناطق المحتلة بعد العام ١٩٦٧. على اساس انه اذا اختار المصريون القتال داخل سيناء فان الاسرائيليين سيكونون سعداء بقتالهم هناك. كذلك، فان اسرائيل كانت في الوقت نفسه مصممة على توجيه ضربة وقائية الى القوات المصرية اذا اكتشفت دلائل على وجود حشود هجومية لها على الضفة الغربية للقنا ة حتى تقضي عليها في المهد. وكان المخططون المصريون يضعون هذا في اعتبارهم ، وا عدوا بالفعل خطة لمواجهة هجوم تقوم به القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية للقناة اطلق عليها اسم " الخطة ٢٠٠ "، وخصصوا لها القوات التي ستقوم بتنفيذها . وكان الدفرسوار احد ثلاثة اماكن محتملة لاستخدامها في العبور الى الضفة الغربية .

وكانت الخطة تقوم على تصور اختراق الدفاعات المصرية عند نقطة الالتقاء بين الجيشين ، وعبور القناة بقوات ومعدات كافية لقطع المواصلات المصرية ، وتدمير عدد كاف من مراكز الصواريخ لفتح فجوة في غطاء الدفاع الجوي المصري تمكن الطائرات الاسرائيلية من الاشتراك في المعركة . ولمجرد ان تؤمن القوات الاسرائيلية ركيزة لنفسها في الضفة الغربية ، فانها عندئذ تتفرق في وحدات صغيرة وتنتشر بسرعة في منطقة واسعة ويعود بذلك الى الجيش الاسرائيلي دوره التقليدي بأنه : " في كل مكان لكنه ليس في اي مكان " .

ولم يكن الأمر يحتاج الى مهارة شديدة من جانب القيادة الاسرائيلية لتحديد مكان نقطة الالتقاء بين الجيشين المصريين ، لأن هذه النقطة كانت حددت في العام ١٩٦٩ في المراكز الدفاعية التي اقيمت على القناة وظلت في مكانها نفسه الى يوم تحولت مصر الى الهجوم . وكانت طائرات الاستطلاع الامريكية التي تحلق على ارتفاعات شاهقة وتتخذ من اليونان قاعدة لها هي التي اكتشفتها وابلغتها اسرائيل . وهذه المنطقة التي تقع خلف الدفرسوار وفايد تكفل لأية قوات غازية غطاء كبيرا، لأن الأرض هناك خصبة ، تغطيها الاشجار، كما انها مليئة بالخنادق التي حفرت ليستخدمها الجيش المصري بعد العام ١٩٦٧. واحتلال مطارات الدفرسوار وفايد ، ومطارات كبريت وكسفريد الى الغرب منها يساعد سرعة الهجوم الى حد كبير .

وكان الرأي انه اذا تم تنفيذ خطة شارون بنجاح، فسيكون ذلك عاملاً منشطا للروح المعنوية الواهنة بين الاسرائيليين . وفضلا عن ذلك ، فانه اذا تمكن السلاح الجوي الاسرائيلي من ضرب مواقع الصواريخ المصرية الباقية، فان الجبهة كلها تصبح معرضة للهجوم من الجو، وكان امل الاسرائيليين ان يترتب على ذلك انتشار حالة من الذعر، فقد تعود القوات المصرية نتيجة لها الى التراجع غرباً، بصورة غير منظمة كما حدث فى ا لعام ١٩٦٧.

وقد تصرف الجنرال شارون والجنرال تال على هدي القول المأثور لنابوليون- كما فعل سلفاهما ديان ويادين في العام ١٩٤٨- وهو ان " من يسيطر على تقاطع الطرق في المعركة يصبح سيد الأرض ". وكان اهم تقاطعات الطرق غربي القناة ، التقاطع الواقع الى الشرق من الاسماعيلية، والتقاطع المعروف باسم تقاطع عثمان احمد عثمان، والتقاطع المشهور عند الكيلو ١٠١ الى الغرب من مدينة السويس . وقد احتلت قوات شارون هذه التقاطعات عندما تأكد الاسرائيليون من ان احتياط مصر الاستراتيجي قد دخل المعركة، وصدر لشارون في النهاية الأذن الذي ظل يطلبه لبدء هجومه عبر القناة يوم ١٥ أكتوبر (تشرين الاول). وكانت هناك في منطقة الدفرسوار- ابو سلطان فجوة بلا حراسة بالفعل ، مسافتها نحو ٤٠ كيلومترا تفصل بين الجيشين ، واستطاعت القوات البرمائية الاسرائيلية التي عبرت البحيرات المرة ان تنشىء لنفسها نقطة ارتكاز سريعة فيها. ومما يثير الدهشة انه كانت في خط بارليف نقطتان حصينتان لم تتم تصفيتهما او انسحاب الجنود الاسرائيليين منهما، وكانتا اداة عون كبير للقوات الاسرائيلية التي عبرت القناة . وقد استطاعت هذه القوات التي كانت تتقدم شمالا في صباح يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) ان توسع الممر الذي عبرت منه، ولم يأت بعد ظهر ذلك اليوم الا وكانت وحدات عدة كاملة تقف عبر القناة . وقد ابلغت بعض الوحدات المرابطة في المنطقة بما يحدث فيها، لكن الاتصالات بين الجبهة ومقر القيادة العامة كانت سيئة جدا.

ونتيجة للاتصالات مع السوفييت، وفي ضوء الاتصالات مع كيسنجر وهيث رأى الرئيس السادات ان الوقت يدنو من بدء المرحلة السياسية من الحرب ، لكن الشك كان يساوره بالنسبة الى قبول اسرائيل للنقاط الخمس التي قدمت الى كيسنجر. لذا فقد قرر ان يتحدث الى مجلس الشعب ، وان ينتهز فرصة هذا الحديث ليعرض مشروع سلام اوسع واشمل ، يقدمه الى الشعب المصري، والى العالم كله عن طريق التلفزيون والاذاعة.

قال الرئيس السادات ان مصر ستواصل القتال لاستعادة الارض التي اغتصبتها اسرائيل ولاعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين، لكنها مستعدة لان تقبل وقف اطلاق النار، بشرط ان تنسحب اسرائيل فوراً وتحت اشراف دولي من كل الاراضي المحتلة الى خطوط يونيو (حزيران) ١٩٦٧. ولمجرد ان يتم هذا الانسحاب، فان مصر ستكون مستعدة لان تحضر مؤتمر سلام تعقده الامم المتحدة، ويبذل الرئيس نفسه ما في وسعه لاقناع الزعماء العرب الاخرين وممثلي شعب فلسطين بالاشتراك فيه. وقال الرئيس ان مصر مستعدة لان تبدأ العمل فوراً في تطهير قناة السويس، بحيث تفتح للملاحة الدولية.

وكان من المقرر، ان تتحدث جولدا مائير في الكنيست في اللحظة نفسها التي كان الرئيس سيتحدث فيها الى مجلس الشعب- عند الظهر بحسب توقيت القاهرة وتل ابيب - لكنه اعلن قبل الموعد المحدد بوقت قصير ان رئيسة الوزراء الاسرائيلية اجلت خطابها الى الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان المفهوم ان الغرض من هذا التأجيل هو اتاحة الفرصة لها للاستماع الى ما سيقوله الرئيس المصري لترد عليه. وعندما القت خطابها، فانها قالت- بين ما قالته- ان القوات الاسرائيلية تقاتل الان " شرق القناة وغربها". وقد اتصلت تلفونيا بالرئيس لمجرد ان تلقيت التقارير عن خطبة مائير، لكنه قال انه ليست لديه معلومات تؤيد مزاعمها ، واتصل بالفريق احمد اسماعيل الذي قال انه ابلغ ما يفيد ان " ثلاث دبابات اسرائيلية متسللة" استطاعت عبور القناة . وكان سوء وسائل الاتصال في تلك الفترة اكبر خطأ في المعركة كلها . وعندما عرف الجميع حقيقة ما يحدث كان لاسرائيل في الضفة الغربية للقناة لواء كامل .

وقيل للرئيس ان ما يقال عن " ثلاث دبابات متسللة" كلام مضلل في الارجح، ولا بد ان تكون هناك ارض اصلب لما قالته جولدا مائير في الكنيست . لكنه كان يشعر على ضوء المعلومات التي كانت متوافرة لديه في ذلك الوقت، بان هذه المخاوف تبين اننا بدأنا نقع ضحية للحرب النفسية الاسرائيلية. وعندما اتصلت تلفونيا بالفريق احمد اسماعيل بعد ذلك بالليل ، قال لي انه ليس ثمة ما يدعوني الى القلق، وان المسألة لا تعدو "حركة سيكولوجية، وسنحرق الليلة كل المنطقة الموجودين فيها ". وهكذا لم يكن هناك في الحقيقة من كانت لديه معلومات دقيقة عن الموقف بالضبط في ذلك الوقت .

وبعدما القى الرئيس خطابه في مجلس الشعب بعث اليه الرئيس الاسد برسالة تعكس اوجه التوتر السياسي والعسكري التي بدأت تظهر بين الحليفين . فقد كتب الرئيس الاسد يقول : " لقد كنت افضل- ونحن لا نزال وسط المعركة- ان أطلع على المقترحات التي اعلنتها في مجلس الشعب قبل ان تعلنها. ولست اريد ان احذو حذو الاخرين، فاتخذ موقفا مؤيدا او معارضا لهذه المقترحات لكني اشعر بان من حق كل منا ان يعرف افكار ونوايا الآخر قبل ان يسمعها من الاذاعة . وانا لست سعيدا بأن اكتب هذه الكلمات، لكني لا اريد ان اخفي عنك شيئا من افكاري وارائي، ما دمنا مشتركين معا في معركة حياة او موت ".

ورد الرئيس السادات برسالة تقول : "ان المقترحات التي قدمتها بالامس تقوم على اساس السياسة التي اتفقنا عليها معا، وليس فيها جديد يستدعي التشاور، حيث انها تنصب على الانسحاب الاسرائيلي وحقوق شعب فلسطين . وقد دفعني الى الاسراع في القاء هذا الخطاب ما علمته من ان جولدا مائير على وشك ان تلقي خطابا في الكنيست، واعتقادي بان علينا ان ندير المعركة السياسية والعسكرية جنبا الى جنب، وان في مقدورنا ان نتحرك الى الامام، ولدينا ارض للمناورة في نطاق المشروع الذي اقترحته . فاذا ما نشأ جديد فلا بد لنا من التشاور بطبيعة الحال . وانه ليسعدني ان مشاعرك نحوي لم تتغير..... ".

وكانت الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه (الثلاثاء ١٦ اكتوبر) (تشرين الاول) عندما وصل رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجين الى القاهرة وبدأ علىالفور تقريبا مشاوراته مع الرئيس السادات. وكان السوفييت عند ذاك يؤيدون وقف اطلاق النار، كما كان من الواضح انهم على اتصال وثيق بالامريكيين الذين كانوا يدعون الى وقف اطلاق النار منذ يوم ١٠ أكتوبر (تشرين الاول). وقال

كوسيجين ان المعركة بحجمها الحالي من الخسائر في المعدات تشكل خطرا كبيرا. وقد استمرت مناقشات كوسيجين في اليوم التالي والى ان غادر القاهرة عائدا الى موسكو يوم الجمعة ١٩ أكتوبر (تشرين الاول).

ويوم الاربعاء١٧ اكتوبر (تشرين الاول) استقبل الرئيس نيكسون في واشنطن وفدا من وزراء خارجية الدول العربية الذين كان معظمهم في نيويورك يحضرون اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد اختيراعضاء هذا الوفد من دول مشتركة في المعركة بصورة مباشرة . والغرض من ذلك – كما قال المصمودي وزير خارجية تونس - " أن تشتم رائحة البترول من دون ان تكون غالبة " . – وكان الوفد يتكون من وزراء خارجية السعودية والكويت والمغرب والجزائر . لما كان وزيرا خارجية كل من المغرب والجزائر يعرفان اللغة الفرنسية أكثر من معرفتهما اللغة الانجليزية ، فقد اقترح الوفد ان يحضر الاجتماع احد المترجمين ، لكن الجانب الامريكي لم يوافق على الاقتراح ، وقال انه سيعد محضرا بتفاصيله يوزعه على الحاضرين . لكن ذلك لم يحدث .

وكان كيسينجر هو الذي استقبل اعضاء الوفد وصحبهم لمقابلة الرئيس . وبعد المقابلة جمعهم حديث اخر مع كيسينجر حضره جوزيف سيسكو. وكان نيكسون لطيفاً في حديثه معهم . قال ان الولايات المتحدة كانت مضطرة الى أن تهب لمساعدة اسرائيل، كما تحدث بافاضة عن الجسر الجوي . وقال ان العرب شكوا من أن الجسر الجوي الأمريكي بدأ لمجرد ان أظهرت مصر وسوريا دلائل كسب المعركة، لكن امريكا لم تبدأ جسرها الجوي الا بعدما بدأ السوفييت جسرهم . وأضاف : " وأريد ان اقول لكم ان أمن اسرائيل شيء لا يمكننا ان نساوم عليه . اننا لسنا من أنصار التوسع من جانب اسرائيل ، لكننا نريد أن تتوافر لها حدود آمنة " . وقال ان الولايات المتحدة مستعدة لأن تلعب دوراً بناء . وأضاف: " انكم ، في العام ١٩٦٧، اتهمتمونا بالتواطؤ مع اسرائيل ، لكنكم جئتم الآن تتحدثون الينا،، وفي هذا اختلاف كبير. ومعي هنا وزير خارجيتي . وستتحدثون اليه. وقد يتهمه البعض منكم بانه يهودي . وهذا صحيح ، لكنه في الوقت نفسه، امريكي، وهو يؤدي دوره في خدمتي بكفاءة . وأنا واثق من أن مشاعره كيهودي لن تؤثر على ولائه لأمريكا او على ولائه لي . وستجدونه رجلاً بناء . وقد قالت مسز مائير لسفيرنا في اسرائيل ذات يوم : لديكم ولدينا نحن الان وزيرا خارجية يهوديان . والاختلاف الوحيد بينهما أن وزير خارجيتنا يتقن الانكليزية اكثر مما يتقنها وزير خارجيتكم ". ووصف نيكسون مسز مائير بأنها تتميزبـ " كفاءة كبيرة". لكنه قال أن مبعث قوتها كان دائماً شعورها بالتفوق العسكري . أما الآن فالموقف مختلف . وقد أكد نيكسون تصميمه على عدم السماح للأزمة الراهنة بأن تتسبب في مواجهة مع الاتحاد السوفييتي .

وبعد الاجتماع بحث وزراء الخارجية الاربعة مسألة وقف اطلاق النار مع كيسينجر. وقال عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر انه لو كان الجزائريون او الفيتناميون قد قبلوا وقف اطلا ق النار، لما تكللت مفاوضاتهم السياسية بالنجاح . ورد كيسينجر أن حرب الشرق الاوسط ليست حرب عصابات. ومن الممكن وقفها . واذا فشلت المفاوضات، فان من الممكن ان تستأنف مرة أخرى . وتساءل بوتفليقة عما سيحدث اذا خرقت اسرائيل وقف اطلاق النار ، ورد كيسينجر ان اسرائيل لا تستطيع ان تحارب وحدها اكثر من تسعة ايام ، تصبح بعدها مضطرة الى الاعتماد تماما على الولايات المتحدة . فإذا خرقت وقف اطلاق النار ، فإن الولايات المتحدة يمكنها ان توقف امداداتها لها . ثم انتقلت المناقشة بعد ذلك الى القرار ٢٤٢ الذي قال نيكسون وكيسينجر كلاهما انهما مستعدان لبذل كل جهودهما للعمل على تنفيذه . وتساءل الوزراء عن السبب في عدم تنفيذه ، ورد كيسينجر ان السبب ، بصراحة تامة ، هو التفوق العسكري الكامل لاسرائيل ، وقال ان الضعفاء لا يفاوضون . وقد كان العرب ضعافا ، لكنهم الآن اقوياء . وقد حققوا ما لم يكن في مقدور أحد – بما فيه هم انفسهم – ان يتصور امكان تحقيقه . وسئل كيسينجر عما اذا كان في الامكان ان تنسحب اسرائيل الى خطوط ما قبل العام ١٩٦٧ ، أو ان تتعهد ان تفعل ذلك . ورد كيسينجر انه يخشى الا يستطيع تقديم وعد بذلك ، وقال ان العودة الى خطوط ماقبل العام ١٩٦٧ ،

تجعل اسرائيل تواجه الاخطار نفسها الي واجهتها قبل حرب يونيو (حزيران) . وقال عمر السقاف وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية ان العرب لا يمكنهم ان يقبلوا نزع سلاح سيناء . ورد كيسينجر قائلا : ولا اسرائيل يمكن ان تقبل ذلك ، لأنها تعتزم البقاء في سيناء ، اما بالنسبة الى حقوق الفلسطينيين ، فإن كيسينجر قال بمنتهى الصراحة : ان ما تقترحونه معناه احد امرين ، اما نهاية اسرائيل واما نهاية الاردن . واكد هو الآخر اصراره على تجنب أي مواجهة مع الاتحاد السوفييتي ، وقال انه لن يكون هناك تدخل فعلي من جانب امريكا في القتال ما لم يحدث " هجوم على اراضي اسرائيل نفسها " .

وترك كيسينجر لدى الوزراء انطباعا انه ليس متعجلا للقيام بأي عمل بالنسبة الى الشرق الاوسط . فقد كان من المقرر ان يسافر الى الصين خلال عشرة ايام ، وقال انه سيطلب ملف الشرق الاوسط بعد عودته من رحلته ، ويبدأ العمل باسلوبه الخاص ، وقال ان اسلوبه لا يقوم على القاء الخطب أو الطواف بعواصم العالم . وعند هذه النقطة التفت الى سيسكو وقال : " مع احترامي لسيسكو " . وسأله بوتفليقة عما اذا كان يرى ان الصين تحظى بالأولوية على الشرق الاوسط على رغم القتال الدائر فيه . فرد كيسينجر ان الاولويات يمكن دائما ان يعاد ترتيبها . واشار السقاف الى انه عندما اجتمع بكيسينجر على انفراد ، فإن كيسينجر قال له ان من الافضل ان ننتظر مدة ثلاثة او اربعة اسابيع الى ان تنهك الاطراف المتحاربة بعضها بعضا ، وعندئذ يصبح التوصل الى تسوية ما ممكنا . وفي النهاية قال كيسينجر ان الخطاب الذي القاه الرئيس السادات يوم ١٦ اكتوبر (تشرين الاول) يتضمن بعض النقاط البناءة لكنه لا يتفق مع كل ما جاء فيه ، وقال : " اننا لا نعتبر الرئيس السادات عدوا لنا " .

وبعدما انتهت القوات الاسرائيلية من اقامة نقط ارتكازها على الضفة الغربية اقامت على القناة جسراً عبرت عليه المدرعات تدعمها المدفعية البعيدة المدى والقصيرة المدى والطائرات . ودمرت في الموجة الأ ولى لهذا الهجوم عدداً كبيرا من مواقع الصواريخ . وكانت الاسماعيلية هدفاً اول من اهداف المهاجمين ، لكنهم واجهوا فيها مقاومة شديدة ، فتحولوا في اتجاه الجنوب والغرب يكسبون مزيدا من الأرض بسرعة، الى أن كان يوم ١٧ أكتوبر (تشرين الاول) حيث صدر الامر الى تشكيل مشهود له بالكفاءة هو لواء المظلات المصري ٢٢ ، بالتحرك للسيطرة على الموقف، وكانت عناصر من هذا اللواء وصلت تقريبا الى تقاطع الطرق الاسرائيلية ، كما كان رجال الضفادع البشرية، بالتنسيق مع قيادة اللواء، قد استعدوا لنسف الجسر عندما تلقوا الامر بالتراجع واقامة جبهة على خط الفرقة نفسه الواقفة بجانبهم لتجنب وجود نتوء . وكان من العسير على العقيد قائد اللواء ان يصدق ان هذا الأمر صادر من مقر القيادة المصرية، وطلب تعزيزاً له ، فجاءه التعزيز من ضابط يعرف صوته . لكنه، في محاولة منه لكسب الوقت، واتاحة الفرصة لنجاح مهمته، فانه طلب تعزيزا للأمر من مقر القيادة العامة للقوات المسلحة في القاهرة . وجاءه التعزيز أيضاً ، فاضطر على رغم انفه الى رفع قبضته عن "زمارة" الرقبة الاسرائيلية وكان قاب قوسين او ادنى منها.

وكانت مدفعية الجيش الثاني تحت اشراف قيادة قديرة للعميد عبد الحليم ابو غزالة، وعناصر من مدفعية الجيش الثالث بقيادة ضابط لا تقل كفاءته عن قيادة ابو غزالة، وهو العميد منير شاس، قد بدأت في قصف جسور العدو واصابتها بأكثر من اصابة مباشرة حين تلقت القيادتان بدورهما امراً بالانسحاب لتجنب حدوث نتوء .

وقد استطاعت المقاومة المشتركة من جانب القوات العسكرية والمدنيين أن تصد الهجوم الذي استأنفته القوات الاسرائيلية على الاسماعيلية في محاولة للاستيلاء على تقاطع الطرق . ولو كانت هذه المحاولة قد نجحت لوضعت الجيش الثاني كله في خطر جسيم . وقال بعض من عاشوا القتال هناك انهم احسوا وكأن الشعار الذي كان يردده الرئيس عبد الناصر أكثر من مرة بالحاجة الى الوحدة بين الشعب والجيش ، قد بعث حياً . لكن الاسرائيليين استطاعوا مساء يوم ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) ان ينشئوا لانفسهم نقطة ارتكاز منيعة على الضفة الغربية للقناة قوامها ٤ الوية دبابات ولواء ميكانيكي ولواء مظلات .

ومن المرجح ان الرئيس السادات كان ادرك مدى الاختراق الاسرائيلي عبر القناة في اليوم السابق- يوم الخميس ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) - لأن كوسيجين قدم اليه في ذلك اليوم صورا التقطت من الجو لمنطقة المعركة وارسلت اليه في الطائرة . وقد غادر كوسيجين القاهرة مقتنعا بأن مصر مستعدة لحضور مؤتمر للسلام شرط ان تشترك فيه الدول الاربع عشرة في مجلس الأمن ن والسكرتير العام للأمم المتحدة ، وكل الاطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون . وقيل له ان مصر مستعدة لأن تبحث هذا فورا ، كما انها مستعدة لأن تبحث وسائل الوصول الى وقف لاطلاق النار .

وخلال هذه الفترة ظهرت مشكلة اخرى مع الملك حسين . ذلك ان الرئيس السادات كان رأى ، عندما ابلغ لأول مرة أن هناك ١٠٠٠ رجل من رجال المقاومة يريدون الاشتراك في الهجوم على اسرائيل ، ان الوقت ليس مناسبا للقيام بمثل هذا التحرك ، لكنه رأى الآن ان هؤلاء الرجال يمكن ان يقوموا بمهمات مفيدة كضرب وسائل المواصلات الاسرائيلية ، وهكذا ، فإنه بعث برسالة الى الملك حسين يطلب اليه فيها ان ينظر الى الموضوع من وجهة نظر ايجابية . وتلكأت حاشية الملك في الرد طوال يومين بحجة انه " خارج عمان " لكن الرئيس أصر على ضرورة ابلاغه ، وتلقى ردا انهم " سيحاولون الاتصال بالملك " . ومر يومان آخران ، تلقى الرئيس بعدهما رسالة مطولة يقول فيها ان حدود الاردن مع اسرائيل تكاد تكون بلا قوات على الاطلاق ، لأن أحد الالوية الاردنية المدرعة ارسل الى الجبهة السورية ، بينما يقوم لواء آخر بحماية خطوط المواصلات مع سوريا . وتساءل عما اذا كان من الممكن للعملية التي يقترحها رجال المقاومة ان تسفر عن نتائج تبرر مثل هذه المجازفة ، ام انها لن تؤدي ببساطة الا الى تعريض الجبهة الاردنية لاخطار تفتقر الى وسائل مواجهتها . ثم وجه في الرسالة عددا آخر من الاسئلة من بينها : ما هي القوة القصوى التي يمكن الفدائيين ان يعدوها ؟ وما هي الضمانات التي يمكن ان تقدم الى السكان الاردنيين الذين يعيشون قرب الحدود ، والتي تكفل عدم تعرضهم لانتقام الاسرائيليين ؟ (وكيف التأكد من الطريقة التي سيتحرك بها رجال المقاومة في تلك المناطق مع مراعاة خطوط المواصلات مع سوريا ؟) . وفي النهاية ، فإن الملك قال في رده انه لا يطلب ان تقدم اليه أو الى قيادة الجيش الاردني اية تفصيلات عن العمليات التي ينوي رجال المقاومة القيام بها . لكن اسلوب التلكؤ الذي اتبعته عمان نجح ، فقد كان وقف اطلاق النار عندئذ ، اصبح وشيكاً .

ولربما كانت هذه مناسبة للاشارة الى ملحوظة داخلية غريبة متصلة بالمعركة . فلقد حدث بعد يوم او يومين من عبور القناة ان طبعت اجهزة الاعلام في القوات المسلحة منشورا وزعته على جميع الجنود العاملين، وأعدت صيغته بأسلوب من التقوى . وكان يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم . ان النبي صلى الله عليه وسلم موجود معنا في المعركة. ياجنود الله ...... الخ الخ " . ويمضي فيقول : " ان احد الرجال الصالحين رأى في المنام النبي محمد صلى الله عليه وسلم يرتدي رداء ابيض ومعه شيخ الأزهر يشير بيده ويقول : تعالوا معي الى سيناء . وقيل ان عدداً من "الرجال الاتقياء" قد شاهدوا الرسول يسير بين الجنود تكسو وجهه ابتسامة رحيمة وتحيط به هالة من النور من كل جانب . ثم يمضي المنشور فيقول : "يا جند الله.. من الواضح ان الله سبحانه وتعالى معكم ". ولقد احسست حين اطلعت على المنشور، ان هذا الاسلوب غير لائق . ذلك ان محاولة الايحاء ان نجاح العبور كان نتيجة لمعجزة، انما تقلل في الحقيقة من قيمة الدور الذي قام به الجنود الذين اشتركوا في المعركة والذين ضربوا اعظم الامثلة ببسالتهم وانجازاتهم . ولقد كان الايمان في قلوبهم وهم يقاتلون ، لكن انتصارهم كان انسانيا.

وكانت مظاهر الشعور الديني تتزايد مع تصاعد حمى المعركة، بحيث اضطر الرئيس الى أن يعلن ان قائد اول فرقة عبرت عناصرها القناة كان ضابطا قبطياً هو اللواء فؤاد غالي . وللمناسبة، فان فؤاد غالي اصبح في ما بعد القائد الناجح للجيش الثاني .

وكنت بدأت منذ فترة اشعر بالقلق لما يبدو من مظاهر توحى أننا نخسر حرب الاعلام ، لان البلاغات الرسمية بعد الايام الخمسة الاولى لعبور القناة بدأت تتعثر، وبدا كأن اجهزة الاعلام اصيبت بنوبة قلبية. فلم يصدر عنها شيء تقريبا، وبدأ الشعب يفقد الثقة فيها، ويعود الى عادته القديمة في الاصغاء الى الاذاعات الاجنبية. وقد ناقشت هذا الموضوع مع الرئيس عندما ذهبت لمقابلته مساء يوم السبت ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول). وكان يجلس في الشرفة في قصر الطاهرة، وكان الظلام حالكا الى درجة أن الضابط الذي صحبني في الطريق اليه لم يره . وقال لي الرئيس انه لا ينام كما يجب ، بينما قالت السيدة قرينته انها تشعر بالقلق على صحته . وبينما نحن نتبادل الحديث رن جرس التلفون، وجاء من يقول ان القائد العام على الخط . وحولت المكالمة الى غرفة نوم الرئيس ، وقمت معه الى الغرفة وسمعته يقول: " نعم يا احمد . نعم . لابد ان نأخذ هذه الفرصة ونرى ما سينجزه كيسينجر في موسكو. اتريدني ان أحضر الى الرقم ١٠ ؟ حسناً .. سأحضر". وسألت الرئيس : "ما الذي حدث؟ ". فقال ان اللواء سعد الشاذلي وصل من الجبهة ومعه صورة كاملة للموقف وان " الفريق احمد اسماعيل يرى ان اتوجه بنفسي الى الرقم ١٠". وهكذا ذهب الرئيس وصحب معه عبد الفتاح عبدالله وزير الدولة لشؤون الرئاسة. وكان في انتظاره هناك الفريق احمد اسماعيل والفريق سعد الشاذلي واللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات، واللواء سعيد الماحي قائد المدفعية، واللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية، واللواء محمد علي فهمي قائد الدفاع الجوي .

وظهر في هذا الاجتماع الحيوي خلاف في وجهات النظر. لقد كان الفريق سعد الشاذلي الذي شهد الموقف على الطبيعة يراه شديد الخطورة، وكانت من رأيه ضرورة سحب بعض الامدادات التي ارسلت الى الضفة الشرقية عندما تقرر تطوير الهجوم ، ولاسيما اللواء المدرع الذي ارسل للأنضمام الى الجيش الثالث، حتى تمكن مواجهة التسلل الاسرائيلي على الضفة الغربية ، كما انه دعا الى سحب بعض الدبابات و القذائف المضادة للدبابات من الضفة الشرقية، وكان رأيه ان سحب هذه القوات التي ارسلت لتطوير الهجوم لا يؤثر على توازن رؤوس الكبارى، وقال انه يخشى، اذا لم تتخذ هذه الاجراءات، ان يحاصر الجيش الثالث، وان يصبح الجيش الثاني مهدداً.

وكانت وجهة نظر الفريق احمد اسماعيل ان مجرد القيام بسحب اي قوات من الضفة الشرقية سيؤدي بالقطع الى اضعاف الروح المعنوية بين الجنود، وقد ينتهي بانهيار شبيه بما حدث في العام ١٩٦٧. وكان رأيه أن الانجاز المصري الحقيقي قد تحقق في الشرق من القناة ، ويجب عدم المغامرة به. واتفق الرئيس معه في الرأي، وقال ان اي اضعاف للقوات المصرية في الضفة الشرقية لابد ان يكون له اثر عكسي على موقف مصر في المفاوضات السياسية التي لا يمكن تأخيرها الان لفترة طويلة.

وبعد انتهاء الاجتماع تبادل الفريق احمد اسماعيل مع الرئيس على انفراد بضع كلمات في غرفة أخرى. قال الفريق انه يتحدث الان للتاريخ وبصفته مواطناً ، وانه اذا كان الرئيس يرى طريقا مفتوحاً لوقف اطلاق النار على أساس شروط مقبولة ، فانه سيؤيد قراره . وقال : " انا لست متشائماً .. فجيشنا لم يمس حتى الآن . لكننا يجب الا نزج بأنفسنا ، في أي حال من الاحوال، في تطور عسكري يمكن قواتنا المسلحة ان تتعرض بسببه لخطر الابادة " .

وبعث الرئيس السادات برسالة الى الرئيس الاسد قال فيها : " لقد قاتلنا الاسرائيليين الى اليوم الخامس عشر. وكانت اسرائيل وحدها في الايام الاربعة الاولى ، فاستعطنا ان نعري موقفها في الجبهتين. وباعتراف العدو نفسه ، فانه فقد ٨٠٠ دبابة و ٢٠٠ طائرة . لكنني كنت في الجبهة المصرية خلال العشرة ايام الاخيرة ، أقاتل الولايات المتحدة أيضاً عن طريق الاسلحة التي ترسلها لاسرائيل . وأقولها بصراحة : انني لا أستطيع ان أقاتل الولايات المتحدة ، أو أن اتحمل امام التاريخ المسؤولية عن تدمير قواتنا المسلحة للمرة الثانية . لذلك فاني أبلغت الاتحاد السوفييتي اني مستعد لقبول وقف اطلاق النار في المراكز الحالية وعلى اساس الشروط التالية :

١- ان يضمن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة انسحابا اسرائيلياً وفق ما أقترحه الاتحاد السوفييتي.
٢- ان يعقد مؤتمر السلام تحت اشراف الامم المتحدة لتحقيق تسوية شاملة وفق ما اقترحه الاتحاد السوفييتي.
ان قلبي ليقطر دماً وانا اقول هذا لك . لكني اشعر بأن واجبي يقتضي اتخاذ هذا القرار. وأنا مستعد لان أواجه شعبنا في اللحظة المناسبة، واقدم اليه حسابا كاملاً عن هذا القرار " .

وجاء رد الرئيس الاسد في اليوم التالي وقال فيه : " لقد تلقيت رسالتك امس بأعمق المشاعر. اخي ارجوك ان تعيد النظر في الموقف العسكري على الجبهة الشمالية وعلى جانبي القناة . اننا لا نرى سبباً للتشاؤم . وفي استطاعتنا ان نواصل الكفاح ضد قوات العدو، سواء أكانت قواته قد عبرت القناة او لا تزال تقاتل شرق القناة . وأنا واثق من أننا يمكننا بمواصلة المعركة وتشديدها، ان نضمن تدمير تلك الوحدات من قوات العدو التي عبرت القناة .

أخي الرئيس السادات. ان من الضروري بالنسبة الى الروح المعنوية للقوات المقاتلة التأكيد على انه رغم ان العدو تمكن نتيجة حادث ما من اختراق جبهتنا، فان هذا لا يعني انه سيكون قادرا على تحقيق النصر. لقد نجح العدو في التغلغل في الجبهة الشمالية منذ أيام عدة مضت، لكن الوقفة التي وقفناها عندئذ وما اعقبها من قتال شديد، قد عززا آمالنا بالتفاؤل . فقد اغلقنا معظم النقط وسيكون في امكاننا ان نعالج امر النقط الباقية في مدى الايام القليلة المقبلة. اني اعتبر احتفاظ جيوشنا بروح القتال امراً لا بديل عنه.
أخي العزيز الرئيس . اني واثق من انك تقدر اني وزنت كلماتي بأقصى العناية، وبادراك كامل الى أننا نواجه الان اصعب فترة في تاريخنا. وقد رأيت ان من الواجب علي ان اكشف لك عن تفكيري، ولاسيما في ما يتعلق بالموقف العسكري على الجبهة الشمالية. والله معك ".

وتم الوصول الى اتفاق لوقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول) . ودخلت معركة سيناء مرحلتها الاخيرة . ولم يكن لدى اي انسان اي عذر لابداء الدهشة من أن اسرائيل بدأت تخرق وقف اطلاق النار لمجرد سريان مفعوله ، لان ذلك مبدأ اسرائيلي تقليدي . ففي الجولة الاولى من القتال عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ قبلت اسرائيل وقف اطلاق النار، لانها احست بالحاجة الى فترة سكون تتلقى خلالها الأسلحة المهربة اليها من اوروبا او تقوم با عادة تجميع قواتها . وفي الجولة الثانية عام ١٩٥٦، وبعد ان قبل انتوني ايدن و جي موليه وقف اطلاق النار، وصدر الامر العام بالانسحاب من سيناء ، فان بن جوريون تعمد تأخير قبول اسرائيل لوقف اطلاق النار الى أن تلقى تأكيداً باستيلاء اللواء المدرع التاسع على شرم الشيخ ، على رغم الاضطراب الذي كان يعرف انه سيسببه لحلفائه نتيجة هذا التأخير. وفي الجولة الثالثة عام ١٩٦٧ تعمدت اسرائيل مرة أخرى تأخير موافقتها على قرار وقف اطلاق النار الذي اصدرته الامم المتحدة حتى يتسنى لها انهاء الحملة لمصلحتها باحتلالها المناطق العليا لنهر الاردن .

وفي العام ١٩٧٣ لم تكن لدى اسرائيل اية نية لاحترام وقف اطلا ق النار، وقد زادت قواتها بسرعة في نقط ارتكازها غربي القناة الى خمسة الوية دبابات ولواءين ميكانيكيين ولواء مظلات . وكانت تقوم بهجمات مضادة يومية على الجيش الثالث بغرض احتلال اكبر مساحة من الارض لا ستخدامها اداة للمساومة في المفاوضات اللاحقة . كذلك ، فان الاسرائيليين اسروا خلال هذه الفترة كل ما استطاعوا اسره من المدنيين والعسكريين للاحتفاظ بهم كرهائن يستخدمونهم في ما بعد . كما كانوا منهمكين في حمل كل ما امكنهم حمله من محصول ، وماشية ، ومعدات مصانع ، الخ ... وكان ذلك نهباً بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

وفي خلال هذه المرحلة الاخيرة من المعركة، كان مصير المشاكل الحقيقية يتقرر في الحوار الدائر بين القوتين العظميين، وكان حواراً تصاعد بالاعلان الامريكي لحالة التأهب النووي .

على ان هناك جوانب معينة لخطة العمليات تحتاج الى تعليق .
١- كانت هذه المرة الأولى التي استعد فيها العرب استعداداً سليما للحرب . ولابد من الاشارة بالتحديد الى عملية اقتحام قناة السويس بالقوة واجتياح خط بارليف . وقد كان من عوامل نجاح الاقتحام تركيز الفريق سعد الشاذلي على ادق التفصيلات بالنسبة الى المعدات والتدريب التي تعودها منذ كان جندياً من جنود المظلات . كذلك كان التخطيط على المستويين الاستراتيجي والتكتيكي ممتازاً ، وفيه تظهر كفاءة وامتياز اللواء عبد الغني الجمسي، رئيس هيئة العمليات، وكان التدريب اكثر من شاق، والاسلحة المستخدمة أفضل المتاح ، كما كانت قواتنا على خبرة تامة في استخدامها. وكان القادة العرب في المواقف السابقة يتصرفون - او غالبا ما كانت ردود فعلهم- بوحي اللحظة بكل ما كان ينجم عن ذلك كوارث.
٢- اذا كان هناك من خطأ في الخطة وتنفيذها من جانب القيادة ، فان مرده ولا شك الى المبالغة في الحذر. وقد ظهر ذلك في مخاوف الفريق احمد اسماعيل الذي كان محقا كل الحق في اصراره على الا يكون مشيراً مصريا آخر كالمشير عبد الحكيم عامر مسؤولا عن تدمير جيش مصري آخر.
٣- ان التوازن بين المتطلبات السياسية والعسكرية في التخطيط للعملية احتفظ به بطريقة صحيحة. والفضل الاكبر في ذلك يعود الى الرئيس عبد الناصر، والى الرئيس السادات، والفريق عبد المنعم رياض، والفريق محمد فوزي، والفريق احمد اسماعيل ، كما يعود الفضل فيه عند الجانب السوري الى الرئيس حافظ الاسد الذي قام بدورحاسم في اعادة بناء القوات المسلحة السورية، وهو أول رئيس سوري يجمع في يديه بين القوتين بين القوتين الاسمية والفعلية معاً .
٤- كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها العرب بدراسة شاملة للعدو الذي كان عليهم ان يحاربوه. ونظرة على مظاهر قصور عجزنا السابق في هذه الناحية كفيلة بأن تكشف الآن انها غير معقولة . ذلك اننا كنا نرى، انه ما دامت اسرائيل دولة لا يجوز ان تقوم ، فاننا كنا نتصرف وكأنها ليست قائمة بالفعل. وكانت كل المراجع الادبية والمطبوعات القادمة من الخارج والتي تتضمن معلومات عن اسرائيل عرضة للمصادرة من جانب الجمارك ، بل ان كل صفحة في اي من هذه المطبوعات فيها اشارة الى اسرائيل كانت تنزع ، كما حدث بالنسبة الى الموسوعة البريطانية و " لاروس " . وقبل العام ١٩٦٧ منعت محاضرة في كلية الاركان المصرية حاول فيها المحاضر ان يحلل اداة الحرب الاسرائيلية. ولم يتغير هذا الموقف ، الا بعد هزيمة العام ١٩٦٧ وبتأييد من الرئيس عبد الناصر، حيث بدأت الدراسات الشاملة لتقييم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، ووسا ئلها، وتقا ليدها، وشخصياتها .
ومع ذلك، فبرغم ان معلوماتنا عن العدو قد تحسنت، فأننا ارتكبنا خطأ سوء التقدير الجسيم للقوى التي يمكن ان تواجهنا. وليس هناك عذر في ضوء وسائل الاستطلاع الحديثة لأن تقوم الخطة العسكرية على أساس وجود مالا يزيد عن ١٠ او ١١ لواء دبابات اسرائيلي، في حين ان اسرائيل اثبتت عند بدء القتال أنها تستطيع ان تدفع الى الميدان ب ١٧ لواء .
٥- على رغم ان مصر خططت للعملية العسكرية بدقة كبيرة ، فانها لم توجه عناية كافية الى الموقف السياسي الذي كان يمكن توقعه نتيجة لهذه العملية . وقد ترتب على ذلك ما نشأ من تردد وسوء فهم بالنسبة الى توقيت وقف اطلاق النار وحجمه .

الفصل الخامس
حالة تأهب نووي

في الخامس والعشرين من اكتوبر (تشرين الأول) وبعد ١٩يوما من بدء القتال ، و ٣ ايام من قرار وقف اطلاق النار الذي صدر باتفاق دولي ، وكان المفروض ان يكون تفيذه قد بدأ بالفعل ، اصدرت حكومة الولايات المتحدة امرا باعلان حالة تأهب نووي ، في حركذ اثارت دهشة اعدائها اكثر مما اثارت خوفهم، كما اثارت حالة من الذهول بين الكثيرين من أصدقائها انفسهم .

ونتساءل : هل كان لاتخاذ مثل هذه الخطوة الخطيرة ما يبرره ؟ .. ثم نمضي لنشرح : كيف تم اتخاذها ؟

منذ بداية الأزمة ، بل حتى قبل ان تطلق الطلقة الأولى ، كانت القوتان العظميان على اتصال مستمر في ما بينهما بواسطة الخط الساخن (التلفون المباشر) بين البيت الأبيض والكرملين . وكان الامريكيون في باديء الأمر يعتقدون ان أي هجوم يقوم به العرب ، سيكون رداً على الحشود الاسرائيلية التي تمت في اعقاب التوتر المتزايد على الحدود السورية بعد المعركة الجوية التي دارت بين السوريين والاسرائيليين يوم ١٣ سبتمبر (ايلول) . وكان هدف الامريكيين ازالة أية أسباب لسوء الفهم يمكن أن تشعل شرارة حرب لا ضرورة لها . فلما بدأ القتال بالفعل تملكتهم الحيرة بعدما تبينوا أن السوفييت كانوا على علم بالاستعداد له قبل وقوعه . وكانت وجهة نظرهم أنه إذا كان السوفييت بالفعل طرفا في الخطط العربية وأخفوا ذلك عنهم ، فإن موقفهم هذا سيكون له أثره على سريان سياسة الوفاق بينهما ، على رغم أن " القواعد " التي تحكم علاقات الدول العظمى لا تتضمن ما يحتم على السوفييت أن يبلغوا مثل هذه المعلومات لواشنطن . والحقيقة أن السوفييت – كما سبق أن رأينا – كانوا في ورطة لا يحسدون عليها ، فقد كانوا يعرفون أن ثمة شيئاً في ما تحمله الرياح ، لكنهم لم يكونوا قد ابلغوا بموعد الهجوم او بمداه. وكان الرئيس السادات قد لمح لفينوجرادوف بطريقة غامضة عن شيء في هذا الصدد يوم اول اكتوبر(تشرين الأول) . كما ان الرئيس الأسد كان اوحى بمثل هذا التلميح الى السفير السوفييتي في دمشق يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول). ولو كان السوفييت قد نقلوا هذه التحذيرات الى الأمريكيين ثم انكشف امر نقلهم لها (وكان سينكشف بطبيعة الحال) لكانوا فقدوا كل ما لهم من مكانة لدى العرب . كذلك فانه لو فرض، في الوقت نفسه، وحدث انفجار ما ، فان صمتهم لا بد سيكون موضع سوء فهم من جانب الامريكيين. لكن الاحداث كشفت بعد ذلك عن ان الأمور سارت على ما يرام ، ولم تدم اية شكوك يمكن ان تكون ساورت الامريكيين حول تواطؤ السوفييت مع العرب طويلا ، بل سرعان ما تم الاتفاق بين القوتين العظميين على ضرورة توجيه جهودهما كليا نحو محاولة احتواء النزاع ، وتجنب الاشتراك بانفسهما فيه، وهو الاهم .

وهكذا، فانهما بدآ منذ يومي ٨,٧ اكتوبر (تشرين الأول) يبحثان معا سبل وقف اطلاق النار ووسائله. لكنها لم يتمكنا من الوصول الى اتفاق بشأن ما اذا كان من الضروري ان يتضمن وقف اطلاق النار طلبا بانسحاب القوات المتحاربة الى المراكز التي كانت تحتلها عند بدء القتال. فقد كان الامريكيون يرون ان يتضمن القرار نصا على الانسحاب ، بينما كان السوفييت يرون ان مثل هذا النص غير عملي نظرا الى النجاح الذي حققه العرب في البداية ، و بالنظر كذلك - وهو الاهم- الى ان مثل هذا الطلب لم يطلب من اسرائيل عندما صدر قرار وقف اطلاق النار في العام ١٩٦٧. وكان فشل نبكسون في الوصول الى اتفاق في هذا الصدد مع الكرملين بعد اتصاله ببريجنيف بواسطة الخط الساخن هو الذي دفعه الى الدعوة الى اجتثاع مجلس الامن.

وعندما فشل اول اجتماع عقده مجلس الامن في هذا الشأن بدأ الاجتماع يتجه نحو مسألة الجسر الجوي لاطراف القتال. وكان الاسرائيليون نظموا هذا الجسر منذ اللحظة الاولى للحرب، وحولوا ما استطاعوا تحويله من طائراتهم المدنية الى الولايات المتحدة حاملة- بموافقة فورية من الرئيس نيكسون- كل ما تستطيع حمله من السلاح والذخيرة. وما كاد المصريون والسوريون يسمعون بهذا الجسر الجوي الاسرائيلي حتى زادوا ضغطهم على السوفييت من اجل ان ينظموا لانفسهم جسرا جويا مماثلا . ولمجرد ان بدأ هذا الجسر الجوي السوفييتي الى العرب قامت الولايات المتحدة بتصعيد جسرها الجوي الى اسرائيل مستخدمة فيه الطائرات الامريكية نفسها، على رغم الخلاف الذي كان قائما في هذا الشأن بين وزارة الخارجية والبنتاجون، حيث كان البنتاجون يخشى ان يؤدي الاندفاع في شحن كل ما تطلبه اسرائيل من سلاح (ولاسيما بعدها بلغت المطالب الاسرائيلية بالنسبة الى المدافع للدبابات والقذائف حد الهستيريا) الى رد فعل عكسي لدى الجانب العربي ، يحتمل معه استخدام " سلاح البترول " الذي كان مثار خوف شديد .

وبحلول منتصف الاسبوع كانت الصورة بدأت تتضح اكثر واكثر بالنسبة الى مدى ما حققه العرب من نجاح في المعارك البرية، واصبحوا يميلون الى الاكتفاء بوقف لاطلاق النار غير مصحوب بشرط الانسحاب، وضغطوا على الاسرائيليين لقبول الفكرة. وكان رئيس الوزراء البريطاني هيث هو الاداة التي استخدمت في ابلاغ اقتراح ، يقوم على هذا الاساس ، لكل من الرئيس السادات، والرئيس الاسد. وتولى سير فيليب آدامز السفير البريطاني في القاهرة ابلاغ الرسالة الى الرئيس السادات في قصر الطاهرة في نحو منتصف ليل ١٣ اكتوبر (تشرين الأول) ، واستمع من الرئيس الى ردود فعله السريعة للرسالة. وفي صباح اليوم التالي استقبله وزير الخارجية اسماعيل فهمي في منزله ، وقدم اليه مزيدا من الايضاح بالنسبة الى ردود فعل الرئيس . على ان هذه البادرة لم تحقق شيئاً محدداً . وفي تلك الاثناء كان السوفييت بدأوا يهتمون بفكرة وقف القتال، بعدها راعتهم السرعة التي لم يسبق لها مثيل التي تلتهم بها المعدات الحربية في هذا النوع الجديد من الحرب ، وخاصة ذلك العدد الكبير من الدبابات التي دمرت في الجبهة السورية ، فضلا عما ذكرته مخابراتهم عن استعدادات يقوم بها الاسرائيليون لشن هجوم مضاد واسع النطاق في سيناء.

وقد اجتمع المكتب السياسي السوفييتي يوم ١٢ و ١٣ اكتوبر (تشرين الأول) واتخذ في نهاية اجتماعاته قرارا بايفاد كوسيجين الى القاهرة، و وصل اليها بالفعل في الساعة الخامسة من يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) وعقد اول اجتماع مع الرئيس عقب وصوله مباشرة ، وناقش معه وقف اطلاق النار الذي كان السوفييت يبحثونه مع الأمريكيين . وقد اعرب الرئيس خلال تلك المناقشة عن تمسكه بضرورة ان يكون هناك انسحاب اسرائيلي مصحوب بجدول زمني محدد، ومؤتمر موسع للسلام . وقال كوسيجين ان المصريين قد اثبتوا جدارتهم في اثناء المعركة ، وخلقوا بهذا عاملاً جديدا تماماً في السعي من اجل تحقيق حل سلمي، لكنه حذر من ان المد العسكري ربما يكون بدأ يتحول في اتجاه آخر، كما حذر من الخطر الذي قد يؤدي اليه استمرار القتال من تورط القوتين العظميين فيه ، نتيجة للمطالب المتزايدة بشأن السلاح من جانب الاطراف المتحاربة . وهنا قال الرئيس السادات متسائلا : " وهل انتم خائفون من اسرائيل " فرد كوسيجين قائلا : " اننا لا نخاف احدا، لكن علينا التزاما نحو السلام العالمي ، كما اننا ملتزمون بالسعي من اجل حل عادل ودائم لمشكلة الشرق الاوسط على أساس القرار الرقم ٢٤٢" .

وقد استمرت محادثات كوسيجين في القاهرة طوال يومي الاربعاء والخميس، و كان خلالها على اتصال مباشر ودائم مع بريجنيف في موسكو. وقد صحب معه الى القاهرة ضابطا خبيرا في تفسير التصوير الجوي، وقدم الى الرئيس خلال احد اجتماعاته معه في قصرالقبة دليلاً بالصور يكشف حجم العبور الاسرائيلي في الضفة الغربية لقناة السويس، ويبين ان ما لا يقل عن ٢٧٠ دبابة وسيارة مصفحة قد عبرت القناة بالفعل. وظهر بعض الخلاف حول طبيعة مؤتمر السلام الذي قال عنه الرئيس في خطابه في مجلس الشعب انه لا بد ان يكون نتيجة لوقف اطلاق النار. فقد كانت مصر ترى ان يحضر هذا المؤتمر اعضاء مجلس الأمن كلهم ومعهم الأطراف المعنية- مصر وسوريا والاردن والفلسطينيون بالاضافة الى اسرائيل- ولا تمانع في تشكيل لجنة فرعية للمؤتمر تقتصر عضويتها على الاعضاء الخمسة الدائمين في المجلس وتمثل فيها الاطراف المعنية ، بينما كان السوفييت يريدون مؤتمرا صغيرا خشية الدور الذي يمكن ان تلعبه الصين في مؤتمرموسع . وقد غادركوسيجين القاهرة في صباح يوم الجمعة ١٩ أكتوبر (تشرين الاول).

وطوال فترة وجود كوسيجين في القاهرة كان نيكسون على اتصال ببريجنيف عن طريق الخط الساخن، وبعد عودة كوسيجين الى موسكو تضاعفت الاتصالات بين الاثنين، فقد كانت الحاجة ملحة لاصدار قرار بوقف اطلاق النار يسرى مفعوله في تلك الليلة نفسها- ليلة ١٩ أكتوبر (تشرين الاول) . وكان من بين المسائل التي لا بد من الاتفاق عليها قبل اصدار القرار مسألة الربط الذي لا بد منه بين وقف اطلاق النار وتنفيذ القرار الرقم ٢٤٢ ، ومسألة الدول التي يتكون منها المؤتمر، والطريقة والموعد الذي تتوقف فيه الجسور الجوية الى الاطراف المتحاربة . وفي الساعة العاشرة مساء ، وبعد ١٠ ساعات من المفاوضات

عبر الخط الساخن ، قال بريجنيف ان من الافضل امام الاهمية الكبرى لعامل الوقت ان تنتقل هذه المفاوضات الى مرحلة المحادثات المباشرة، واقترح ان يحضر كيسنجر الى موسكو على الفور ومعه تفويض من الرئيس نيكسون بسلطة توقيع اتفاقيات ملزمة.

ووصل كيسنجر الى موسكو في ساعة مبكرة من صباح يوم السبت ٢٠ اكتوبر (تشرين الاول) ، وبدأ محادثات مع الزعماء السوفييت على الفور، وكان من بين نقط الخلاف التي ظهرت منذ البداية اصرار كيسنجر على ضرورة اجراء مفاوضات مباشرة بين اطراف القتال لمجرد سريان مفعول وقف اطلاق النار. وكانت وجهة نظره ان النجاح الذي حققه العرب في البداية ، ووجود القوات المصرية على الضفة الشرقية لقناة السويس ، يجعلان من رفض العرب السابق الجلوس مع الاسرائيليين امرا غير ذي موضوع. وقال ان حالة اللا حرب واللا سلم قد انتهت ، وحلت محلها حالة لا نصر ولا هزيمة ، وان كل طرف في القتال حصل على شيء مما يريد ، وبذا يكون الوقت قد حان لأن يجلس الطرفان معا ويتحدثان. وقال ايضا انه ليس في مقدور القوتين العظميين ان تفرضا تسوية على الاطراف المتحاربة ، وان مثل هذه التسوية امر لا بد ان يتفقوا عليه في ما بينهم ، و كل ما تستطيع القوتان العظميان ان تقدمه ا ليهم هو التوجيه والاشراف.

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة في موسكو كانت التقارير التي تصل الى القاهرة من جبهة القتال تحمل صورة مزعجة وتتزايد تباعا. وكان اللواء سعد الشاذلي قد توجه الى الجبهة بعد ظهر يوم ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) يحمل أوامر وخططا لتطويق ما كان لايزال يظن انه " جيب " للتسلل الاسرائيلي عبر القناة . لكنه تبين عقب وصوله الى المنطقة ان الصورة الحقيقية مختلفة كل الاختلاف عن الصورة التي قدمت الى القاهرة، وان ما هو مطالب بتصفيته ليس "جيبا " ، وانما هو اختراق كبير. كذلك فقد كان هناك من الدلائل ما يشير الى ان الاسرائيليين يستعدون في الضفة الشرقية للقيام بحركة تطويق في الجنوب ضد الجيش الثاني .

وكان لا بد للرئيس من ان يوازن بين هذه التقارير المزعجة والصورة الاشمل للمعركة. وكانت الحقيقة البارزة في الصورة هي ان الجيش المصري قد اثبت نفسه ، وان نظرية الأمن الاسرائيلية التي لم تكن تسيطر على عقول الاسرائيليين وحدهم بل كان يشاركهم فيها عدد من الحكومات الأخرى قد تحطمت. كذلك ، فان الشعب المصري كشف عن عزيمة قوية على القتال والتضحية والتحمل ، لكن الموقف الان لم يعد قضية مصر ضد اسرائيل ، وانما موقف مصر ضد اسرائيل والولايات المتحدة معا ، وفي هذا ما يجعل من الحماقة تعريض جيش باسل لاختبارات لا مبرر لها ، كما يجعل من وقف اطلاق النار أمرا معقولا.

وقد عاد الرئيس الى قصر الطاهرة، واستدعى السفير السوفييتي لمقابلته ، وطلب اليه ان يبلغ بريجنيف استعداده لقبول وقف اطلاق النار على أساس الشروط التي قدمها الى كوسيجين في اثناء وجوده في القاهرة. ووصلت هذه الرسالة الى بريجنيف في اثناء محادثاته مع كسينجر. وبدأت المسائل تتحرك منذ تلك اللحظة، فقد وضعت يوم السبت صيغة القرار الذي سيقدم الى مجلس الأمن بوقف اطلاق النار، وابلغت القاهرة به ، كما ابلغت ان مجلس الامن سيعقد اجتماعه يوم الأحد.

واتفق على ان يعود كيسنجر عن طريق اسرائيل ليقدم الى الاسرائيليين صورة عما فعله في موسكو، ويشرح لهم نص قرار مجلس الأمن. و كان الكثيرون من الاسرائيليين في ذلك الوقت يعارضون فكرة وقف اطلاق النار ، أحساسا منهم بأن النصر أصبح في متناول ايديهم . و فى ظنى ان تقديرهم هذا كان خاطئاً ، لأن الطرفين كانا عندئذ قد انتشرا ألى اقصى حد ممكن ، وكان من المستحيل عليهم أن يستمروا بقوة الدفع المطلوبة لفرض قرار حاسم في جبهة القتال نفسها . وكان من بين ما علمناه في ما بعد ان كيسنجر بذل جهدا مضنيا في محاولة اقناع الاسرائيليين بأنهم على رغم امكان استعادتهم لعنصر

المبادرة فان الأيام الأولى للقتال قد اثبتت خطأ الكثير من افتراضاتهم الاستراتيجية ... فهم قد تعرضوا للمفاجأة ، وبرهن العرب على قدرتهم على العمل المنسق فضلاً عن أن أزمة الطاقة تضع في ايديهم ورقة سياسية رابحة . وأكد على اهمية كلمة " المفاوضات " التي ينص عليها القرار وقال انها مطلب ظل الاسرائيليون يطالبون به طوال ٣٦ عاما . كذلك فانه اكد ، بطبيعة الحال ، اهتمام امريكا بتجنب المواجهة مع السوفييت.

وعندما سمع الرئيس بأن كيسنجر سيمر باسرائيل رأى ان نطلب اليه ان يتوقف في القاهرة ايضا. وارسلت اليه دعوة باسم الرئيس تلقاها وهو فى اسرائيل. (استخدمت في توصيلها اليه شبكة الاتصالات " غير المرئية " مع واشنطن التي كانت تعمل طيلة الوقت) . لكن الكثيرين من الزعماء الاسرائيليين ، ولا سيما جولدا مائير نفسها، عارضوا بشدة فكرة توقف كيسنجر في القاهرة. فقد كانوا يخشون ان تبدو الولايات المتحدة ، اذا ما سافر كيسنجر من القدس الى القاهرة مباشرة ، وكانها تحاول القيام بدور السمسار الشريف فى صراع لا بد ان يتحول ميزان القوى فيه لمصلحة العرب إذا استمر الاتحاد السوفييتي في تأييده لهم . وهكذا اعتذر كيسنجر للرئيس السادات ، وقال في رده أن من المؤسف ألا يستطيع الحضور في هذه الفترة بالذات ، لكنه يأمل في ان يزور القاهرة قريباً جداً .

وعقد مجلس الأمن جلسته في الموعد المحدد لها وهو الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم السبت (بحسب توقيت جرينتش) ، بعد أن استدعى جميع الاعضاء إلى نيويورك من حيثما كانوا يستمتعون بقضاء عطلة نهاية الاسبوع ، باستثناء مندوب الصين الذي اقنعه المندوب الأمريكي وغيره من المندوبين بعدم الحضور لإزالة مخاوف السوفييت من احتمال استخدامه حق الفيتو . واستمع المجلس إلى نص القرار الذي أعد في اثناء وجود كيسنجر في موسكو ووافق عليه بالاجماع . وكان القرار ، الذي حمل الرقم ٣٣٨ ، يدعو إلى وقف اطلاق النار خلال مدة لا تزيد على ١٢ ساعة وبقاء جميع القوات في المراكز التي تكون فيها ، كما يدعو جميع الاطراف إلى أن تبدأ فور وقف اطلاق النار في التنفيذ الكامل للقرار الرقم ٢٤٢ ، مع ما يستتبع ذلك من " ضرورة بدء مفاوضات بين الاطراف المعنية تحت اشراف مناسب بغرض الوصول إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط " .

وكان المفروض أن يصبح قرار وقف اطلاق النار ، نافذ المفعول في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والخمسين (حسب توقيت القاهرة) من يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) لكن الاسرائيليين لم يأبهوا به منذ البداية . وكانت تلك هي اللحظة التي بدأ فيها الجنرال شارون ما وصفه بأنه " عملية عصابات تقوم بها الدبابات " في الضفة الغربية لقناة السويس . وقد ثبت فيما بعد أنه قام بالعملية بأمر من الجنرال دايان . وراح الاسرائيليون يمارسون اسلوبهم المعتاد في استخدام الهدنة كغطاء لتحسين مركزهم العسكري . وقد نجح شارون في احتلال تقاطع الطرق على طريق الاسماعيلية – القاهرة . ثم تقدم بعد ذلك نحو عتاقة . وفي صباح يوم ٢٣ تقدم جنوبا حيث فاجأ القاعدة البحرية في الأدبية واحتلها . وكانت هناك وحدات اسرائيلية اخرى ارسلت بالقوارب عبر القناة لدعم تشكيل وحدات الدبابات في هجومه على مركز الدفاع الساحلي في السخنة . وكان من الواضح أن هدف الاسرائيليين هو تطويق الجيش الثالث ، وقطع المواصلات على طريق القاهرة – السويس ، وعزل مدينة السويس .

وعلى رغم أن الجيش الثاني المصري كان سليما ويقف في خطوطه بثبات تام ، وأن الجيش الثالث بقيادة اللواء أحمد بدوي كان يقاوم الضغط الشديد الذي يتعرض له من جانب قوات العدو ، فإنه لم يكن من الممكن تركهما على حالهما إلى ما لانهاية ، وكان الرئيس السادات يبعث كل ساعة تقريباً برسائل عاجلة إلى كل من بريجنيف ونيكسون يوضح فيها ان اسرائيل تخرق وقف اطلاق النار بصورة منتظمة . وفي يوم الثلاثاء ادركت القوتان العظميان ان الموقف يستدعي ضرورة اتخاذ اجراء من جانبهما ، فوجها الدعوة الى اجتماع جديد يعقده مجلس الأمن .

وكان نقد مصر لقرار مجلس الأمن الأول – ٣٣٨ – انه لم يتضمن شيئا عن ارسال قوات من الأمم المتحدة إلى المنطقة للاشراف على تنفيذ وقف اطلاق النار . وقلت أنا في ذلك الحين اننا نرتكب خطأ الموافقة على " قانون من دون قاض " . وكان مشروع القرار الجديد الذي قدمته أمريكا والاتحاد السوفييتي ووافق عليه مجلس الأمن تحت الرقم ٣٣٩ أفضل بعض الشيء من القرار الأول ، لكنه كان بعيداً جداً عن تحقيق المطالب المصرية . ذلك أنه – وهو الأهم – لم يطلب العودة الى خطوط قرار وقف اطلاق النار الأول – خطوط يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) فهيأ بذلك لاسرائيل أن تحتفظ بالمكاسب التي حصلت عليها بانتهاكاتها لوقف اطلاق النار . وقد اشار الرئيس إلى ذلك عندما أطلعه فينوجرادوف على النص المقترح للقرار الجديد . لكن فينو جرادوف قال إن ادخال تعديلات على القرار سيعقد الأمور . وعندما رد الرئيس أن القرار في صيغته الحالية غير كاف ، قال فينوجرادوف : " سيدي الرئيس . أتريد منا أن نستخدم الفيتو لوقفه ؟ " وتضايق الرئيس من السؤال ، لأنه لم يكن – بطبعة الحال – يريد من السوفييت أن يستخدموا الفيتو ضده ، وكل ما كان يهدف إليه هو وقف لاطلاق النار يستطيع ان يقف على قدميه ، ولا يتيح للاسرائيليين أي مبررات للمضي في القتال . وهكذا قبل القرار بصيغته التي عرضت عليه . وكان القرار يتضمن – بعد تأكيده للقرار الرقم ٣٣٨ – دعوة السكرتير العام للأمم المتحدة إلى " أن يتخذ الاجراءات لكي يرسل على الفور مراقبين من الأمم المتحدة للاشراف على الالتزام بوقف اطلاق النار ، مستخدما لهذا الغرض ، قبل كل شيء ، موظفي الأمم المتحدة الموجودين الآن في القاهرة " . وقد صدرت الموافقة على هذا القرار بالاجماع ايضا .

ومع ذلك ، فإنه في اليوم التالي لصدور القرار الرقم ٣٣٩ – في ٢٤ اكتوبر (تشرين الأول) كانت القوات الاسرائيلية لا تزال ماضية في تقدمها . وقد بعث الرئيس السادات برسالتين طبق الأصل لكل من بريجنيف ونيكسون قال فيهما : " ولا بد من أن تكونوا بأنفسكم على الأرض لتشهدوا بأعينكم انتهاكات اسرائيل لوقف اطلاق النار " . وفي تصوري أن بريجنيف كان في ذلك الوقت قد بدأ يشك في احتمال أن يكون الامريكيون يخدعونه . فعلى رغم أنه كان يثق في كيسنجر وفي الطريقة التي تطبق بها سياسة الوفاق ، الا انه لم يكن يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يواصل الاسرائيليون هذه الانتهاكات الصارخة لقرار بوقف اطلاق النار المفروض فيه انه قدم بالاشتراك مع حكومة الولايات المتحدة نفسها – ولا سيما بعدما قام كيسنجر بزيارة شخصية لاسرائيل – ما لم يكن هناك بعض التواطؤ مع واشنطن . ومع ذلك فلم يكن هناك في ذلك اليوم – او في أي يوم آخر – أي اقتراح من جانب المصريين أو السوريين بدعوة السوفييت إلى ارسال قواتهم الى المنطقة . والطلب الوحيد الذي قدم ، أو كان موضع تصور ، هو حضور السوفييت والامريكيين إلى المنطقة لتولي اعمال المراقبة .

وفي ٢٤ اكتوبر (تشرين الأول) بعث الرئيس نيكسون إلى الرئيس السادات برسالتين ، قال في أولاهما : " لقد طلبت إلى وزير الخارجية كيسنجر ، لمجرد أن تسلمت رسالتك ، أن يقدم احتجاجا عاجلا إلى الاسرائيليين بأن استمرار العمليات الهجومية العسكرية سيكون له اخطر النتائج على مستقبل العلاقات الامريكية الاسرائيلية . وقد ردت الحكومة الاسرائيلية أن من يبدأ بالهجمات هو الجيش الثالث ، وان القوات الاسرائيلية تقف موقف الدفاع ، وأن الأوامر الصادرة اليها هي الرد على النار إذا تعرضت للهجوم . ومن هنا تصبح معرفة الحقائق الأصيلة مستحيلة . وأريد ان أؤكد لك أن الولايات المتحدة تعارض معارضة مطلقة كل الاعمال الهجومية التي تقوم بها اسرائيل ، وهي مستعدة لاتخاذ خطوات فعالة لوضع حد لها . وفي الوقت نفسه ، فإن عليك ان تكفل وقف كل الاعمال العسكرية من جانب قواتكم ايضا . وسيتصلوزير الخارجية كيسنجر بالسيد اسماعيل فهمي بعد ظهر اليوم بشأن امكان اجراء محادثات مباشرة بيننا بشأن الدبلوماسية التي سنتبعها في المستقبل " .

ولم تكن الجملة التي وردت في رسالة نيكسون وتضمنت قوله " ومن هنا تصبح معرفة الحقائق الاصيلة مستحيلة " مقنعة تماما ، بل أن ما جاء فيها عزز شكوك السوفييت بأن الاسرائيليين يسمح لهم عن عمد بالمضي في انتهاكاتهم . ذلك أن الامريكيين والسوفييت كليهما يقومون بتصوير مناطق المعركة كل

ساعة تقريبا . ومن الممكن تماما للمسؤولين في البنتاجون أن يقارنوا بين ما كان عليه الموقف يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) حين لم تكن السويس قد طوقت ، ولا كانت الادبية قد احتلت ، وبين الموقف الذي اصبح عليه يوم ٢٤ . ولا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد ما يقوله الاسرائيليون من ان من العسير على كائن من كان أن يحدد الخطوط التي كانت قائمة يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) لأنه إذا كان هناك من يريد أن يعرف ، فالوسائل لذلك كثيرة . وقد كان جروميكو منذ بضع سنوات يتحدث إلى محمود رياض عن الدقة المدهشة لوسائل التصوير الجديدة بالاقمار الصناعية حين قال له : " اننا نستطيع أن نقدم اليك ، اذا شئت ، صورة لسيناء ، يمكنك بواسطتها أن تحدد مكان جميع الثعابين الموجودة فيها " . وليس المفروض أن يكون الامريكيون متخلفين في هذا المضمار .

وكانت الرسالة الثانية التي تلقاها الرئيس السادات من الرئيس نيكسون بعد ذلك بقليل تقول : " لقد ابلغنا توا من قبل رئيسة وزراء اسرائيل ان التعليمات صدرت الى القوات المسلحة الاسرائيلية بأن تلزم المراكز الدفاعية ، ولا تطلق النار إلا إذا اطلقت عليها . واستجابة لاقتراحكم الخاص بارسال مراقبين امريكيين ، فإن الحكومة الاسرائيلية وافقت على السماح للملحقين العسكريين الامريكيين بالتوجه فورا إلى منطقة النزاع ليتولوا مراقبة تنفيذ هذه الاوامر . وستقدمون عونا كبيرا لو انكم صدرتم التعليمات لقواتكم بهذا الشأن " .

وعند هذه النقطة يصبح موقف الحكومة السورية على درجة حيوية من الأهمية . فقد كان السوريون – كما سبق ان رأينا – يشعرون بالضيق لأننا قبلنا وقف اطلاق النار ، وكانوا يشعرون بضيق أكثر للطريقة التي علموا بها بقبولنا له . فقد قالوا أن المرة الأولى التي سمعوا فيها بموعده كانت عندما أعلن مندوب مصر في مجلس الأمن قبوله وقف اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر (تشرين الأول) . وبعد ذلك سافر الدكتور صدقي مبعوثا خاصا إلى الرئيس الأسد لمحاولة اقناعه بضرورة موافقة سوريا على القرار ايضا . لكن الرئيس الاسد كان في حالة نفسية سيئة ، فقد كان مقتنعا بأن الهجوم المضاد الاسرائيلي على جبل حرمون لم يكن لينجح لولا أن الاسرائيليين كانوا يعلمون أن وقف اطلاق النار اصبح وشيكا ، واستطاعوا نتيجة لذلك أن يلقوا بكل ثقلهم في هذه العملية الأخيرة . وكان لابد ، من ناحية اخرى ، من الغاء هجوم رئيسي كان المفروض ان يبدأ يوم ٢٣ اكتوبر (تشرين الأول) وتشترك فيه القوات العراقية . ومع ذلك ، فإنه لم يكن أمام الرئيس الأسد إلا قبول وقف اطلاق النار . وقد ابلغ أن مصر تطلب من القوتين العظميين ايفاد مراقبين وموظفين إلى المنطقة لمعاينة الموقف بانفسهم . ولم يكن بين السوريين والامريكيين اتصال مباشر في ذلك الوقت ، وكان الاتصال بينهما يتم إما عن طريق مصر واما عن طريق السوفييت . وفي يوم ٢٤ استدعى الرئيس الأسد السفير السوفييتي في دمشق وطلب منه اتخاذ الاجراءات اللازمة لجلب قوة سوفييتية إلى سوريا على الفور . كما بعث إلى الرئيس السادات برسالة يسأل فيها عما إذا كان الاتحاد السوفييتي سيرسل قوات (وكلمة قوات يمكن أن تعني قوات مسلحة أو قوات مراقبة يكون المشتركون فيها في الحقيقة أفراد كما يحدث في قوات الطواريء مثلا) وعلى رغم ان الكلمة التي استخدمها الرئيس الاسد كانت كلمة قوات ، فإن السلطات في القاهرة ظنت أن من الممكن أن يكون الرئيس الأسد قد استخدم الكلمة بمعناها الاوسع . فقد كانت مصر تعرف أن السوريين يشكون في ان العراقيين يرفضون قبول وقف اطلاق النار ويهددون بسحب كل قواتهم من سوريا ، لذلك فقد تصورت أن من المعقول أن تكون سوريا في حاجة إلى بعض القوات السوفييتية لسد الثغرة التي سيتركها العراقيون . وعلى هذا الاساس ، فإن الرئيس السادات رد بقوله " لقد ابلغني الاتحاد السوفييتي أنه ارسل ٧٠ مراقبا . وانا اقدر موقفك ، وأوافق على انك قد ترى من الضروري ان تطلب جنودا سوفييت اذا كان الموقف – في رأيك – يستدعي ذلك " .

واستمر تبادل الرسائل بين الرئيسين على الوجه التالي :

الرئيس الأسد : " عندما سألتك عن القوات السوفييتية التي ستحضر إلى المنطقة ، فإني كنت اظنها ستحضر بناء على طلب منك . وقد استدعيت السفير السوفييتي في دمشق وابلغته عن القوات السوفييتية التي سترسل إلى مصر ، لكني لم اطلب أبدا قوات سوفييتية تحضر إلى سوريا " .

الرئيس السادات : " لقد فهمت من رسالتك أن طلب حضور قوات سوفييتية كان من جانب سوريا ، ووافقت عليه على اعتبار أن الحاجة في جبهتكم تستدعي ذلك . أما نحن فإننا لم نطلب أبداً قوات سوفييتية ، وإنما طلبت فقط مراقبين سوفييت يشتركون في الاشراف على وقف اطلاق النار . وهذا ما أبلغته لفالدهايم " .

ولا جدال في أن كل الرسائل المتبادلة بالشفرة بين القاهرة ودمشق خلال مدة تزيد على ساعتين أو ثلاث ساعات قد التقطت من جانب الامريكيين . ومن الجائز أن تترك هذه الرسائل انطباعا أن هناك من يطلب قوات سوفييتية ترسل إلى المنطقة . وكانت النتيجة ، كما عرفنا مما قاله كيسنجر فيما بعد أن مجلس الأمن القومي الامريكي دعي إلى اجتماع قيل فيه أن هناك " دليلا قاطعا " على أن السوفييت على وشك ان يتدخلوا بالقوة في الشرق الأوسط . وليس من الممكن أن يكون هناك أي مصدر ملموس لمثل هذا المعنى غير الرسائل المتبادلة بين السادات والأسد . ومن الجائز أيضا أن تكون بعض وحدات من قوات حلف وارسو قد وضعت في حالة تأهب كاجراء وقائي . ومثل هذا الاجراء يعتبر اجراء عاديا في أمريكا وأوروبا الغربية في حالة توتر كهذه ، لكنه لا يمكن أن يعتبر دليلا قاطعا من ذلك النوع الذي تحدث عنه الامريكيون . وهناك ايضا عامل آخر يمكن أن يكون سبباً لسوء الفهم ، وهو ارسال المراقبين من الاتحاد السوفييتي . ولقد ابلغ الرئيس السادات الرئيس نكسون أن المراقبين السوفييت قادمون ، لكن من الجائز أن تكون واشنطن استنتجت حين علمت بتوجههم الى المنطقة انهم الدفعة الأولى لقوة أكبر بكثير ، خصوصاً انه كان من المعروف لدى الامريكيين ان فالدهايم لم يطلب من الاتحاد السوفييتي سوى ٣٥ مراقبا .

كذلك فإنه في اثناء تبادل الرسائل بين الرئيسين السادات والاسد بعث بريجنيف الى نيكسون برسالة عن طريق الخط الساخن لفت فيها النظر الى الانتهاكات الاسرائيلية المستمرة لوقف اطلاق النار ، وقال : " وإذا لم تلتزم اسرائيل بوقف اطلاق النار فلنعمل معا لفرض وقف اطلاق النار ولو بالقوة إذا استدعت الضرورة " . وقد رأت واشنطن في هذا كلاما شديد اللهجة جدا ، وقال كيسنجر ان هذه اللهجة ذكرت الامريكيين بـ " انذار " عام ١٩٥٦ الذي وجهه بولجانين الى ايزنهاور وقال فيه ان الاتحاد السوفييتي مسعد للتدخل " اما مشتركا واما منفردا " لفرض الاحترام الواجب لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة . وكانت رسالة بريجنيف هذه هي التي اطلعت عليها الحكومة الامريكية عددا كبيرا من اعضاء مجلس الشيوخ لتبرر بها حالة التأهب .

وايا كان الدليل الذي قدم إلى مجلس الأمن القومي ، فإن المجلس قرر – كما قال كيسنجر وبناء على طلب منه – اعلان حالة التأهب من الدرجة الثالثة . وقد انضم نيكسون الى المجلس في نهاية مناقشاته وصدق على القرار ، وقام وزير الدفاع باصدار التعليمات اللازمة بشأنه لرؤساء الاركان .

وربما كان للامريكيين بعض العذر في ما ارتكبوه من خطأ في قراءة الموقف اذا شئنا لهم أن يفيدوامن عامل الشك على رغم ان اتصالنا الدائم – نحن والسوفييت – بهم كان جديرا بأن يجنبهم الوقوع في مثل هذا الخطأ الخطير في الحساب . وقد اعترف كيسنجر نفسه في ما بعد بأن اعلان حالة التأهب النووي كانت غلطة . وقال : " فلنوافق على أن هناك رئيسا أمريكيا وجد نفسه في موقف صعب ، وقرر أن يتخذ الحد الاقصى من الاجراءات الوقائية حتى يطمئن نفسه ويطمئن الآخرين " . وربما كان الأمر ، بالدرجة نفسها ، أمر رئيس كان شديد الحساسية – لاسباب داخلية – بالنسبة الى هيبته الشخصية ، وكان حريصا

على ان تكون هناك ازمة كوبا اخرى ، من صنعه هذه المرة . والقول نفسه يمكن أن ينطبق على وزير للخارجية شديد الادراك لاهمية سمعته الخاصة بالديبلوماسية القائمة على القوة .

وكما كان متوقعا ، فإن السوفييت دهشوا لاعلان حالة التأهب الامريكي ، وقال بريجنيف في رسائل الى الرئيس الجزائري بومدين والى الرئيس الأسد ، انه يعتقد انها انذار كاذب ناجم عن رغبة امريكية في التهويل شأن الأزمة ، وانها إذا كانت تعني تحذيرا للاتحاد السوفييتي ، فإن عنوان من وجهت اليه الرسالة يكون خطأ ، أما زعماء اوروبا الغربية فقد اصيبوا كلهم تقريبا بحالة من الذعر . وحين جاء كيسنجر الى القاهرة بعد ذلك بفترة قصيرة ، فإنه اعرب عن شعور شديد بالمرارة تجاه ردود الفعل في أوروبا ، واندفع في أحد اجتماعاته مع عدد من المسؤولين المصريين الى حد القول : " لا يهمني البتة ما يحدث لأوروبا الغربية ، ويمكنهم – من ناحيتي أنا- ان يذهبوا جميعهم الى الجحيم . انهم يركعون امامنا على الركب عندما يحسون بأنهم في حاجة الينا ، لكنهم عندما يحسون بأن في استطاعتهم الاستغناء عنا ، فانهم يتصرفون بطريقة ابعد ما تكون عن المسؤولية " . وكان من بين ما قاله عنهم ايضا ما هو اقسى من هذا بكثير .

وعلى أية حال ، فإن اعلان حالة التأهب الامريكي تكشف اشياء كثيرة من نواحي عديدة . فهي تبين كيف اصبحت القوتان العظميان شريكين وعدوين في وقت واحد . وتبين ايضا اصرارهما على أن يتجنبا بأي ثمن الدخول في مواجهة حقيقية بعضهما مع بعض ، واستعدادهما لتبادل كل المعلومات ذات الأهمية لتحقيق هذه الغاية . لذلك فهي تبين ان كلا منهما مستعد للقبول الواقعي لمصالح الآخر في منطقة جغرافية بعينها (الشرق الاوسط في هذه الحالة) . ويجدان من الاسهل عليهما ، عندما يصل الأمر إلى مرحلة تقديم التنازلات ، أن يضغطا على اصدقائهما لتقديمها ، بدلا من أن يقدموها هم انفسهم ، ولعل في الجسور الجوية التي استخدمها كلاهما ما ينير الطريق بالنسبة الى الطريقة التي تقوم عليها علاقات الدولتين العظميين . فقد تبين عندما توقفت هذه الجسور في النهاية أن كمية السلاح التي قدمته أمريكا إلى اسرائيل تكاد تتساوى – طنا بطن تقريبا – مع الكمية التي قدمها الاتحاد السوفييتي الى مصر وسوريا .

*****

الفصل السادس
شكل جديد من الحرب

قدمت الجولة الرابعة للقتال بين العرب واسرائيل التي دارت رحاها خلال شهر اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ شكلاً جديدا من اشكال الحرب لا يختلف عن الجولات الثلاث السابقة بين الطرفين المتحاربين فحسب، لكنه يختلف في بعض نواحيه عن اي قتال دار في اية منطقة اخرى من العالم ، كما انه جدير بالدراسة كمؤشر لاشكال القتال المحتملة التي يمكن ان تنشب في المستقبل. ويمكن تلخيص الصفات التي تميزت بها حرب اكتوبر (تشرين الاول) بما يلي :
١- كانت حربا فوق المستوى التقليدي ، وادنى من المستوى النووي . ولعل خير اسم يمكن ان يطلق عليها هو " الحرب الالكترونية" ، لما شهدته من استخدام واسع النطاق للقذائف الموجهة ووسائل الاستطلاع الالكتروني . وكانت غرف العمليات فيها اشبه ما تكون بغرف المراقبة في محطات توليد الكهرباء ، تدار بالعقول الالكترنية وا لازرار.

٢- على رغم التطورات الكبيرة في التكنولوجيا، فان العنصر الانساني لعب في هذه الحرب دورا على اعظم درجة من الاهمية ، كما كان للعدد فيها اهميته . ولم تكن لدى اي طرف من اطرافها اسلحة سرية لا يعرف الطرف الاخر شيئاً عنها . وكان تكاثر وانتشار الاسلحة لدى الطرف العربي والكفاءة التي استخدمت بها هذه الاسلحة، هي المفاجأة التي فوجئت بها اسرائيل.

٣- ربما كانت هذه الحرب اول مثل صادق للحرب المحدودة... الحرب المحددة في اهدافها وفي المدة التي تستغرقها. كذلك فانها كانت محدودة من حيث ان عدد المشتركين فيها من الجانبين لم يزد مع استمرار القتال ، كما لم تزد مساحة ميدان معاركها. ففي الضفة الغربية لقناة السويس لم تزد هذه المساحة ابدا ٢٠ كيلومترا في الغرب، كما انها لم تزد في الضفة الشرقية للقناة عن ٣٠ كيلومترا شرقاً . وكذلك الحال بالنسبة الى الجبهة الشمالية.

٤- اظهرت هذه الحرب انه حتى وان لم تشترك القوتان العظميان في القتال مباشرة، فان الحرب الالكترونية لا يمكن ان تدور بغير اشتراكهما. وقد قال كيسنجر ان اسرائيل لا تستطيع ان تخوض حربا لمدة تزيد على ١٠ ايام من دون ان تتوسل الى الولايات المتحدة لتعويض المعدات التي تكون فقدتها خلال تلك المدة ، وهذه الدرجة نفسها من الاعتماد تحكم العلاقات بين العرب والاتحاد السوفييتي . وقد بلغت خسائر الطرفين في المعدات خلال حرب اكتوبر (تشرين الاول) حدا مذهلا، وقدر العدد الاجمالي للدبابات التي دمرت في ١٥ يوما من القتال بـ ٣٠٠٠ دبابة . ولو قارنا هذه الخسائر بخسائر الدبابات في واحدة من اكبر معارك الدبابات في الحرب العالمية الثانية - وهي المعركة التي دارت بين الجنرال مونتجومري والفيلد مارشال روميل في شمال افريقيا واستمرت ستة اشهر- لوجدنا ان الخسارة في معركة الحرب العالمية الثانية لم تزد عن ٦٥٠ دبابة. وهذا الاعتماد من جانب اطراف القتال على الدولتين العظميين لا يحدد وحسب المدة التي تستغرقها الحرب ، وانما يحدد ايضا المدى الذي يمكن اي طرف من اطرافها ان يقف عنده في محاولة فرض ارادته على الطرف الآخر.

٥- اظهرت هذه الحرب ان الدفاع ، اذا احسن تنظيمه ، يمكن ان يكون، كالهجوم ، عاملا حاسما في المعركة. فكل المعارك المهمة التي دارت بعد هجوم العبور في القناة كانت معارك دفاعية. بل ان اقتحام القناة وخط بارليف يمكن ان يعتبر عملا دفاعيا من حيث انه لم يكن ليتم بنجاح لولا جدار الصواريخ. وفي المراحل الاولى للقتال لم تكن مصر تفكر في التقدم الى ما بعد منطقة الحماية التي تغطيها الصواريخ ، وانتظرت هجوما يقوم به الاسرائيليون على الضفة الشرقية للقناة . وعندما جاؤوا يهاجمون، فان مصر ضربتهم بقسوة ، ثم ضربتهم بالقسوة نفسها عندما جاؤوا يهاجمون مرة اخرى . وكان السبب الأكبر لنجاح اسرائيل في عبور القناة الى الضفة الغربية ان قواتنا التي بقيت غربي القناة كانت جردت من مدافعها المضادة للدبابات لتستخدمها القوات التي عبرت الى الضفة الشرقية. ومن ناحية اخرى ، فان الجيش الاسرائيلي قاسى ما قاساه لأن قادته كانوا يعتبرونه في الاصل قوة هجومية وعندما ذهبوا يجمعون السلاح من الولايات المتحدة لم يكن تركيزهم قبل بدء القتال على المدافع المضادة للدبابات، لكن الآية انعكست بعد بدء القتال وتغيرت اولويات مطالبهم تماما.

٦- كانت هذه الحرب ايذانا بتأهيل جنود المشاة . فقد كان في استطاعة جندي المشاة المصري ان يوقف الدبابات والطائرات بقذائف " مولوتكا " و " ستريللا "

٧- وبارتفاع اهمية المشاة سجلت هذه الحرب انزال الطائرات والمدرعات من المركز الذي ظلت تحتله منذ الحرب العالمية الثانية ، واصبح دورها دور الضحية ، لا دور السيد . وكان التأثير النفسي على الطيارين وقادة الدبابات شديدا عندما وجدوا انفسهم عاجزين عن تحديد مواقع عدوهم . ذلك ان المدافع المضادة للطائرات او القذائف المضادة للدبابات تكون في العادة هدفا ثابتا يمكن تحديد موقعه ، وبالتالي تدميره . لكن اي جندي مصري بمفرده مسلح بقذيفة " مولوتكا " أو " ستريللا " هو هدف متحرك وغير مرئي يتنقل في الصحراء، تحميه رمال التلال وعشوش الشوك.

٨- برهن نجاح عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف على عدم جدوى خطوط الدفاع الثابتة ، وحطم العقيدة الاسرائيلية الخاصة بفاعلية " الحدود الطبيعية الآمنة " . وكان اغلاق باب المندب و " سلاح البترول " اضافة لعامل تحطيم هذد العقيدة .

٩- اكدت هذه الجولة الرابعة الحاجة الحيوية في الحرب المحدودة الى ضرورة وجود استراتيجية سياسية تتسلم الزمام عندما يتوقف القتال .

١٠- اظهرت هذه الحرب أن القرار بشأن الموعد الذي يتوقع ان تنتهي فيه الحرب لا يقل اهمية - من وجهة نظر التخطيط - عن القرار الخاص بالموعد الذي تبدأ فيه . فالقوتان العظميان لا يمكن ان تسمحا لحرب، تمدانها بالمعدات، بأن تطول الى اجل غير مسمى . ولا بد لهما ، عند نقطة معينة ، من ان تتقدما وتجمداها. كذلك فلا بد من ان يوضع تدخل الامم المتحدة موضع الاعتبار، وكان تقدير الهند لهذا تقديرا صحيحا في عام ١٩٧١. فقد قدرت ان تمضي فترة" ١٥يوما قبل ان يفرض وقف القتال عليها وعلى باكستان،، وتمكنت من اتمام عملياتها خلال ١٤ يوما .

١١- تبين أن السرعة والحركة في الحرب الالكترونية يمكن ان تلعبا الدور الحاسم في المعركة . فحتمية المدة المحددة للقتال، وكذلك تعقيد الاسلحة المستخدمة فيه ، تجعلان من الاستجابة الانسانية الحساسة و المرنة أمرا اساسيا. والمعلومات الواردة من الجبهة يجب ان تجد من يتلقاها بسرعة ، وينقلها بالسرعة نفسها . وقد ذهب بعض المفكرين الا ستراتيجيين ، بينهم الجنرال الفرنسي اندريه بوفر، الى حد القول انه سيصبح فى الامكان توجيه جميع القوات في الميدان من غرفة مراقبة مركزية بالطريقة نفسها التي توجه بها العمليات الجويةالآن . وقد حققت مصر خلال حرب اكتوبر (تشرين الأول) بعض النجاح ، وتعرضت لبعض الفشل في هذه الناحية . فقد تمكنت بالاستغلال السريع لكتاب شفرة اسرائيلي وقع في ايديها من تحديد موقع مقر القيادة الاسرائيلية في سيناء ، وكانت النتيجة ان ضربته ودمرته وقتلت قائده الجنرال ابراهام ماندلر . ومن ناحية اخرى ، فلو ان المعلومات التي بعثت بها الدوريات المصرية الخاصة من المراكز المتقدمة والتي وصلت الى جفجافة يوم ١٧ ، وذكرت فيها ان الطريق امام القوات المصرية مفتوح – لو ان هذه المعلومات قد لقيت تقديرا صحيحا لاستطاعت القوات المصرية ان تتقدم مباشرة الى الممرات .

١٢- اثبتت هذه الحرب مرة اخرى ان العدد له قيمته . فقد كانت اسرائيل تقول دائما ان العدد يمكن ان يكون عبئاً ، وان حجم الجيوش العربية لا يمكن ان يعوض نوعية الجيش الاسرائيلي . ومن ناحية اخرى فقد تحدث عبد الناصر في احد اجتماعاته مع بريجنيف عن بناء جيش قوامه مليون رجل. لكن الجيش لم يبن بهذا الحجم ،، وانما استطاعت مصر في عام ١٩٧٣ بالملايين الـ ٣٦ من سكانها ان توفر العدد الكافي من الجنود المؤهلين التأهيل اللازم لجعل منطقة المعركة غابة من القذائف . كذلك فان الاحتياط من الرجال الموجودين تحت تصرف مصر كانت له فائدته من حيث تمكينها من تعويض قادة الدبابات والطائرات . وكانت هذه هي المرة الاولى التي استطاع فيها الكم العربي ان يفعل شيئا لتعويض بعض الميزات في الكيف الاسرائيلي .

١٣- اظهرت الحرب ان المفاجأة لا تزال ممكنة على رغم كل الاجهزة الالكترونية المتوافرة لدى الطرفين، والمتوافرة بأشكال اوسع لدى القوتين العظميين بطبيعة الحال . وقد فوجئت القوتان العظميان والعالم كله بصورة عامة بالهجوم المصري قدر مفاجأة اسرائيل به.

١٤- واخيرا فان الحرب اكدت مرة اخرى اهمية البعد التاريخي . والتفسير البسيط- لهذا الذي حدث في اكتوبر (تشرين الأول) هو ان الشعب المصري كان صمم على تخليص نفسه من الشعور بالنقص الذي ظل يحمل ثقله منذ هزيمة ١٩٦٧ . وكانت اسرائيل تعيش في حالة من الثقة بالنفس مبالغ فيها ، وفي

حالـة مـن العمـى التـام بالنسبة الـى طبيعـة العنـاد فـي طبيعـة الانـسان المـصري والعربـي . وقـد ظـل الاسـرائيليون والامريكيـون يخطئـون فـي معـالجتهم للمواقـف بطريقـة براجماتيـة (مغاليـة فـي الواقعيـة) صرف. فهم لم يكونوا يتعاملون الا مع ما يرونه بأعينهم ، مع تركيز على الحاضر واغفال تام للماضي. وما اكثر ما سمعنا في الحديث مع روجرز وكيسنجر وسيسكو وغيرهم من الامريكيين يقولـون : (لا يهمنا ان ننبش الماضي... المهم ان ننظر الى الموقف كما هو عليه الآن ". في حين ان موقف اليوم ليس الا من خلق الماضي .

*****

الفصل السابع
البترول

كان من بين النتائج التي اسفرت عنها حرب اكتوبر (تشرين الاول) ان العرب استخدموا لأول مرة ما اصبح معروفا الآ ن باسم " سلاح البترول " وهو سلاح كـان الكثيـرون من ابنـاء العـالم العربـي ينـادون باستخدامه منذ مدة طويلة ، وكان الكثيرون في الغرب يرتعدون خوفا من احتمال استخدامه . ومع ذلك فانه عندما استخدم لأول مرة لم يلحق أضراراً كبيرة بمن كان المفروض ان يلحق بهم الضرر ، كما انـه لم يفد من كان المفروض ان يفيدوا منه.

ولا بد لكي نعرف سر اطلاق هذا السلاح بنجاح من نظرة نلقيها على خلفيـة الصورة التـي كـان عليهـا موقف الطاقـة فـي الشرق الاوسط وفـي الغرب ، ولاسيما علـى موقف حكومتين بعينيهمـا فـي هـذين المعسكرين- حكومتا الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية - باعتبارهما مفتاح هذه المعادلة.

في بداية ١٩٧٢ تعرضت الولايات المتحدة لما اطلقت عليه الصحف في ذلك الوقت اسم " ازمـة الطاقـة "، حين اغلقت محطات البنزين ابوابها ، ولم تجد المنازل والمكاتب ما تستخدمه في تدفئتها . والحقيقة ان مـا حـدث لـم يكـن بالفعل نتيجـة ازمـة طاقـة، وانمـا نتيجـة ازمـة فـي سـوق البتـرول ، فالولايـات المتحدة بمواردها الواسعة من الفحم واليورانيوم والبترول والزيت الحجري تملك من مصادر الطاقـة اكثرمما تملكه اية دولة اخرى في العالم ، لكن مشكلتها كانت في عجزها عن وضع سياسة منسقة للطاقة. وكانـت تلك ورطة اشد ما يثير السخرية حولها ان حرب اكتوبر (تشرين الأول) هي التي انقذتها منها!

ومنذ سنوات عديدة والصراع في الولايات المتحدة محتدم بين شـركات البتـرول ودعـاة حمايـة البيئـة ، وكانت الظواهر في اوائل ١٩٧٠ تشير الى ان كفة الفوز في هذا الصراع تميل الـى جانـب دعـاة حمايـة البيئة. فقد اقر الكونجرس في ١٣ اغسطس (آب) ١٩٧١ قانوني الهواء غير الملوث ، والسياسة القومية للبيئة، كما اقر قانون المياه النقية في ١٩٧٢. ثم جاءت المحكمة العليا واصدرت قرارا بوقف أنشاء خط انابيب بترول الاسكما في ١٠ فبراير (شباط) ١٩٧٣ . ولم تستطع شركات البتـرول – التـي تعتبـر فـي الواقع شـركات طاقـة بحكم ملكيتهـا لـ ٣٠ في المائـة من منـاجم الفحم الامريكيـة و ٤٠ فـي المائـة من موجودات اليورانيوم ، استغلال آبـار البتـرول الجديـدة علـى سـاحل كاليفورنيا او انشاء معامل التكريـر الجديـدة . كذلك، فقد تأجل انشاء معامل الطاقة النوويـة الجديدة ، كمـا خفض الانتـاج في منـاجم الفحـم الشرقية ، وهي اقرب المناجم الى المراكز الـصناعية فـي الـبلاد . وقوبلـت النـداءات والرجـاءات الـشديدة التي تقدت بها هذه الشركات للسماح لها بزيادة سعر البترول ، بالرفض من جانب الحكومـة الفيدبراليـة ، كما لقيت معارضة من جانب الرأي العام الذي كان يرى ان الارباح التـي تحققهـا هـذه الـشركات ضـخمة بما فيه الكفاية. وكانت وجهة نظر شركات البترول انه ما لم يسمح لها برفع اسعار بترولها فان استغلال المصادر الجديدة للطاقة في الولايات المتحدة لن يكون مجزيـا مـن الناحيـة الاقتـصادية . وكـان مـا تخـشاه هذه الشركات هو احتمال زيادة الحصة المسموح باستيرادها مـن البتـرول ، ومـا يـستتبع ذلـك مـن خفـض فعلى في سعر البترول المحلي لينافس سعر البترول المستورد الأرخص .

وكانت الحكومة الفيديرالية مترددة بين اختيارين : فاما ان تسمح برفع اسعار الطاقة في داخل الولايات المتحدة ، وتسمح في الوقت نفسه بتوفير اراض جديدة للاستغلال بما فيها من مصادر للطاقة لم تمس بعد، وتعدل قوانين البيئة، واما ان تخفض الاسعار بزيادة تدفق البترول الرخيص السعر من الخارج. وترتب على هذا التردد نقص في زيوت الوقود في شتاء ١٩٧٢، خفت حدته نوعا ما بالقرار الذي اصدره الرئيس نيكسون الخاص بزيادة حصص الاستيراد ، وما اعقب ذلك من الغاء نظام الحصص تماما في ١٩٧٣. وفي الوقت نفسه ، فان الرئيس نيكسون قدم تنازلا كبيرا الى شركات البترول عندما وافق على ان تعفى من الضرائب لمدة ٥ سنوات كل انواع الزيوت التي تستورد لتكريرها في مصانع التكربر الجديدة . ومع ذلك فان نسبة الزيت التي تم استيرادها في ١٩٧٢ لم تزد على ٥ في المائة من احتياجات الطاقة في الولايات المتحدة . ولم تزد نسبة ما تم استيراده من الدول العربية من هذه الـ ٥ في المائة عن ١٨ فى المائة .

وكانت الصورة في المنطقتين الاخريين اللتين تعتبران السوق الرئيسية للبترول العربي – وهما اوروبا الغربية واليابان – مختلة تماما . ذلك ان حظ اوروبا الغربية من الطاقة اقل بكثير من حظ الولايات المتحدة . فهي لا تملك مصادر لليورانيوم ، وبريطانيا والمانيا الغربية هما الدولتان الوحيدتان من دول اوروبا الغربية اللتانا يتوافر لديهما بعض المخزون من الفحم . وهناك آمال كبار معلقة على الزيت والغاز من البحر الشمالي ، لكنه حتى لو تحققت اكثر هذه الآمال تفاؤلا ، فان نسبة الزيت المستورد اللازم لمصادر الطاقة في اوروبا الغربية يقدر لها ان تزيد في ١٩٨٠ عما كانت عليه في ١٩٧٣، بحيث تصبح ٨٠ في المائة بدلاً من ٦٠ في المائة .

اما اليابان فالصورة فيها اسوأ من اوروبا الغربية. فهي تستورد ٩٠ في المائة من احتياجاتها من مصادر الطاقة، ومن هذه ٩٠ في المائة ايضا من الخليج العربي . يضاف الى ذلك ان اوروبا الغربية واليابان لا تتمتعان بميزة اخرى تتمتع بها الولايات المتحدة ، حيث تمتلك الشركات الامريكية ٦٠ في المائة من آبار البترول في العالم العربي، بينما لا يوجد لأوروبا الغربية- باستثناء بريطانيا وفرنسا- اي اتصال مباشر ببترول الشرق الاوسط ، وهكذا تكون الشركات الامريكية هي المستفيد الرئيسي من البترول الذي يبيعه العرب لا وروبا الغربية واليابان .

وكان هدف الامريكيين هو تكوين جبهة مشتركة من الدول الرئيسية المستهلكة لبترول الشرق الاوسط بحيث تضمن استمرار تدفق امدادات البترول الخام بالمعدل السليم والاسعار الصحيحة ، وكذلك تمويل المشروعات الجديدة لتطوير مصادر الطاقة في بلا دهم من الارباح التي تحصل عليها شركات الطاقة (البترول)، وتشجيع الدول العربية المنتجة للبترول على استثمار جزء كبير من ارباحها في هذه المشروعات. ويبلغ ما تنفقه الشركات في الوقت الحاضر في مشروعات التطوير هذه ١٦ ألف مليون دولار، لا بد من زيادتها الى ٥٠ ألف مليون دولار. وهذا الفرق - ٣٤ ألف مليون دولار- يجب ان يغطى من الارباح الضخمة للشركات ، ومن الاستثمار الاجنبي (العربي).

وننتقل الان من الغرب- مستهلك الطاقة- الى البلاد العربية- منتج هذه الطاقة.

في عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ خفضت شركات البترول الاسعار التي تدفعها للعرب ثمناً لبترولهم الخام، وكان هذا الخفض سببا في انشاء منظمة الدول المصدرة للبترول المعروفة باسم " اوبيك " بغرض حماية الدول المنتجة من الاجراءات التعسفية التي تتخذها الشركات الاجنبية التي تقوم باستغلال وتسويق بترولها. ولا بد من الاعتراف بان منظمة " الاوبيك " لم تحقق لسنوات طويلة الا القليل من الاهداف التي انشئت من اجلها . فقد ظل سعر البترول العربي ثابتا على ما هو عليه لمدة ١٠ سنوات متصلة، وكان النجاح الحقيقي الوحيد الذي حققته هو خفض نفقات تسويق البترول ، والحصول على موافقة

الشركات بشأنا " تنفيق " نسبة الريع (لم تستطع الشركات بعد ذلك ان تعتبر هذه المبالغ التي تدفعها للحكومات جزءا من نفقات الانتاج) . وربما كان من بين اسباب عدم نجاح " الاوبيك " ان العالم كان يواجه في أواخر الستينات واوائل السبعينات تخمة في البترول . وكانت الدول الرئيسية المنتجة للبترول في الشرق الأوسط ، ولا سيما ايران والمملكة العربية السعودية، بحاجة الى دخل اضافي، وكانت تضغط على شركات البترول لتزيد من انتاجها، وحذت حذوها كذلك دول اخرى جديدة كانت قد بدأت تنضم لمجموعة الدول المنتجة للبترول مثل نيجيريا. وفي ١٩٧٢ بدأت كل الدول الرئيسية تحث حكومات الدول المنتجة للبترول على ضرورة خفض انتاجها. وفي بداية ١٩٧٣ بدأ الحديث يتردد حول "امكانات فوائض ضخمة " من البترول، ونجم عن ذلك قلق حتى لدى ايران نفسها : زعيمة الدعوة الى زيادة انتاج البترول .

وتعتبر السعودية مفتاح الموقف بالنسبة الى تحديد السياسة الخاصة بالبترول في الشرق الأوسط . ذلك ان معدلات الانتاج في الكويت وابوظبي لا بد ان تحدد لفترة طويلة مقبلة، وفي حالة ضرورة الاسراع بزيادة الانتاج في منطقة الخليج لمواجهة الاحتياجات المتزايدة للبترول في اوروبا الغربية واليابان، فلا بد من ان تأتي هذه الزيادة من ايران والسعودية . لكن احتياط ايران من البترول يعتبر صغيرا اذا ما قورن باحتياط السعودية منه (٦٠ ألف مليون برميل في مقابل ١٣٠ ألف مليون برميل، بل ان بعض الخبراء يقدرون الاحتياط السعودى بما يصل الى ٤٥٠ ألف مليون برميل).

وكان الملك فيصل ينادي دائما بعدم استخدام البترول كسلاح ، وشرح الشيخ احمد زكي يماني وزير البترول السعودي وجهة نظر الملك في هذا الشأن في خطاب القاه في معهد الشرق الاوسط ، وفي شهادة ادلى بها أمام لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الامريكي في شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٣. وكان مما قاله ان السعودية مستعدة لتزويد الولايات المتحدة بكل احتياجاتها من البترول شرط ان توافق شركات البترول على ان يصبح العرب في سنة ١٩٨٠ شركاء في هذه الشركات بنسبة ٥٠ في المائة، وشرط ان تمنح الافضلية للبترول العربي الذي يصدر الى الولايات المتحدة . ووعد بأن تستثمر السعودية مبالغ كبيرة من المال في الولايات المتحدة، ولا سيما في المشروعات البترولية، ومعامل التكرير، ونظم توزيع البترول داخل الولايات المتحدة .

لكن السلطات الامريكية لم تبد حماسا كبيرا لهذا العرض، لانها لم تكن تريد للولايات المتحدة ان تعتمد اعتمادا كبيرا على مصدر واحد للطاقة او على دولة واحدة لتزويدها بها ، وكانت تعتبر كل ما يقوله العرب عن استخدام البترول كسلاح سياسي مجرد دخان في الهواء ، وتستند في ذلك الى التصريحات المتكررة التي اعلنها الملك فيصل عن ان البترول لن يستخدم كسلاح سياسي . وفضلا عن ذلك ، فانها كانت ترى ان من الممكن- في اسوأ الظروف- اجبار العرب على تصدير بترولهم بالكميات المطلوبة الى دول العالم الاخرى ، وكانت تعتقد ان الجيش الاسرائيلي ليس قادرا تماما على الزحف على القاهرة وحسب ، وانما في مقدروه ايضا، اذا دعت الضرورة- وهو ما كشفه السناتور وليام فولبرايت في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ- ان يحتل من دون مقاومة كل من الكويت والمناطق الأخرى المنتجة للبترول بما فيها السعودية.

وجاء اول تغير في الموقف لدى الجانب العربي مع قيام الثورة الليبية في عام ١٩٦٩. ففي شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٠ اصدر الرئيس معمر القذافي قرارا بخفض انتاج احد حقول البترول الذي تديره شركة " اوكسيد نتال " الامريكية الى ٨٠٠ ألف برميل في اليوم . واختار القذافي شركة " اوكسيدنتال " بالذات لانها كانت شركة مستقلة ليس لها مصادر اخرى في الخارج يمكن ان تعتمد عليها، ولابد لها لتنفيذ التزاماتها التعاقدية من ان تعتمد على عملياتها داخل ليبيا نفسها. وقد ساد الشركة شعور بالقلق لهذا القرار لم يكن له ما يبرره ، حيث ان في العقود الموقعة بينها وبين ليبيا بندا يتضمن تحميل المستهلك اي

زيادة في اسعار البترول الخام . وعلى اية حال ، فانها وافقت على زيادة السعر ، وبعد ذلك جاء الدور الى معظم الشركات الاجنبية الاخرى التي تعمل في ليبيا .

وكان القذافي يلعب اوراقه بذكاء . فقد افاد من اغلاق قناة السويس في عام ١٩٦٧، ومن قطع خط أنابيب بترول " التابلاين " من السعودية الى البحر الابيض المتوسط نتيجة عملية قامت بها المقاومة الفلسطينية و " بولدورز" سوري كذلك ، فقد كان هناك نقص عالمي في حمولة الناقلات، بحيث لم تجد شركات البترول الوقت الكافي او القدرة على تعويض الخسائر التي تعرضت لها في سوريا عن طريق زيادة الامدادات من دول الخليج . وكان حظ ليبيا كبيرا بتضافر هذين الظرفين معا، حتى لقد ترددت شائعة على نطاق واسع تقول ان حادث "البولدوزر" الذ ي قطع خط " التابلاين " لم يكن حادثاً غير مقصود، وانما كان حادثاً وقع عن عمد بالاتفاق بين القذافي ونور الدين الاتاسي رئيس الجمهورية السورية في ذلك الوقت . لكن هذه الاشا عة لم تثبت أبداً .

ولقد ظل العرب لسنوات طويلة يتحدثون عن " سلا ح البترول " بأسلوب غير واضح ، وكنت أنا واحداً من اوائل من نادوا بالحاجة الى أن يستخدم العرب مركزهم الفريد كمورد رئيسي للطاقة في العالم استخداما عمليا، وترددت في هذا الشأن مقترحات عديدة . كان البعض يرى تأميم الشركات صاحبة الامتياز في البلاد العربية، لكن ذلك لم يكن اقتراحاً عمليا. فقد سبق أن أمم العراق في ٢ يونيو (حزيران) ١٩٧٢عمليات استخراج البترول التي تقوم بها شركة بترول العراق (أي . بي . سي) في كركوك، لكن التأميم لم يشمل عمليات نقل البترول وتكريره وتسويقه ، وهي الانشطة الرئيسية لشركة " اي. بي. سي . " التي تحصل منها على معظم ارباحها. ذلك أن الشركات الدولية لا تخسر عندما تؤمم امتيازاتها الا ما تحصل عليه من ربح من استخراج البترول الخام، ويمكن تعويض هذه الخسارة بسهولة عن طريق زيادة ارباحها من العمليات الا خرى . والواقع أن العراق وجد صعوبة في تصريف بتروله المؤمم ، وذكرت بعض التقارير أنه استخدم الحظر الذي فرض في عام ١٩٧٣ كستار لتصريف جانب منه.

وعقب حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧ بدأ سلاح البترول يطفو على السطح شيئا فشيئأ، بعدما أصبح تقريباً الورقة الوحيدة المتوافرة لدى العرب اثر الهزيمة. وظهرت اول فرصة للاتفاق على سياسة عربية موحدة للبترول في مؤتمر الخرطوم الذي عقد في اواخر شهر أغسطس (آب) ١٩٦٧، لكن الحكومات والشركات كليهما كانتا تخشيان بطريقة عجيبة الاثار التي يمكن أن تترتب على استخدام هذا السلاح . فقد كانت الشركات تخشى أن يحدث خفض خطير في الانتاج ، حيث كانت الاصوات تنادي في ذلك الوقت بوقف كل امدادات البترول الى أن تنسحب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في الحرب. ونتيجة لقلة ما هو متوافر من الحقائق والارقام لدى الحكومات العربية، فانها كانت تخشى النتائج التي يمكن أن تترتب على اجراءاتها، ولم يكن بينها من يريد أن يكرر مأساة الدكتور مصدق في ايران .

وقد ذهب عبد الناصر الى المؤتمر وفي نيته أن يقنع بالحصول على تعويض لما فقده نتيجة للحرب ولاغلاق قناة السويس التي أفادت الدول العربية المنتجة للبترول منه . وحالت كرامته بينه وبين الافصاح عن احتياجاته المالية الحقيقية، لذا، فانه كان أكثر من فوجىء عندما افتتح الملك فيصل "المزاد"- وكان مزاداً بالفعل - وقال ان المملكة العربية السعودية مستعدة للمساهمة بمبلغ ٥٠ مليون جنيه في السنة لدعم الدول التي تضررت بالعدوان ، واقترح ان تساهم الكويت بمبلغ ١٠ مليوناً ، وأن تساهم ليبيا بمبلغ ٣٠ مليوناً . وكان نصيب مصر من هذا الدعم مبلغ ١٠٠ مليون جنيه سنوياً ، أي ما يزيد بنحو ١٠ في المائة عما قدر لخسارتها نتيجة اغلاق قناة السويس . وكان هذا القرار رائعا حقاً ، وسواء أكان الملك فيصل هو صاحبه ، او كان هناك غيره اشاروا عليه به كوسيلة لتجنب استخدام مدمر لسلاح البترول ، فأمر من المستحيل معرفته في هذه المرحلة. لكن من المحقق أن القرار جعل لمصر

والاردن مصلحة في استمرار الحصول على هذا الدعم من اموال البترول ، وكان له تأثيره في أن يسكت لفترة طويلة أي حديث جدي عن استخدام سلاح البترول .

ولقد ظل الملك فيصل الى ما قبل حرب اكتوبر بقليل يعارض استخدام سلاح البترول في المعركة. وقال في حديث سجل له في شهر يوليو (تموز) ١٩٧٣: " ان البترول ليس سلا حاً سياسياً . انه سلاح اقتصادي يمكننا أن نشتري به أسلحة تستخدم في المعركة" . كذلك، فانه أعرب عن سخط شديد عندما قطع خط أنابيب " التابلا ين " ، وقال ان أقساط الدعم التي وعدت بها مصر والاردن في مؤتمر الخرطوم ستتأخر شهراً ، لأن قطع الخط معناه خسارة مالية للسعودية. والحقيقة ان مصر هي التي طلبت الى السوريين اصلاح الخط ، كما طلبت الى المقاومة عدم التعرض له مرة أخرى .

ثم حدث بعد ذلك ما جعل الملك فيصل يغير رأيه . ونحن نعرف أن الاسرة السعودية كانت مختلفة في ما بينها في هذا الشأن ، فقد كان بين الامراء من يرى استخدام البترول كسلاح ، وكان بينهم من يعارض ذلك. وأيا كان السبب، فان الملك فيصل أبلغ الرئيس الاسد في آخر لقاء تم بينهما في مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في الجزائر في ٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ قبل حرب اكتوبر (تشرين الاول)، أنه اذا رأى استخدام سلاح البترول هذه المرة، فله ان يستخدمه، وقال : " ولكن اعطنا وقتا كافيا، لاننا لا نريد ان نستخدم البترول كسلا ح في معركة لا تستمر أكثر من يومين او ثلاثة أيام ثم تتوقف، وانما نريد معركة تستمر مدة تكفي لتعبئة الرأي العام العالمي " . وكان قوله هذا متفقاً تماماً مع تفكير المسؤولين في مصر.

وهكذا شهد عام ١٩٧٣ ازمتين سارتا في خطين متوازيين : احداهما أزمة طاقة- وهي في الاصل مشكلة اقتصادية- تبحث عن أداة تفجرها، والثانية ازمة الشرق الاوسط القديمة- وهي في الاصل ازمة سياسية- تبحث عن وسيط من نوع جديد . وعثرت كل من الازمتين على بغيتها في الازمة الاخرى: عثرت ازمة الطاقة في الشرق الاوسط على أداة التفجير التي تبحث عنها ، وعثرت ازمة الشرق الاوسط في أزمة الطاقة على الوسيط من النوع الجديد الذي تبحث عنه . لكن الفائدة التي جنتها ازمة الطاقة من أزمة الشرق الاوسط كانت أكبر من الفائدة التي جنتها ازمة الشرق الاوسط من أزمة الطاقة.

ولا بد من الاعتراف بأنه لم تكن هناك خطة محددة مرسومة لاستخدام سلا ح البترول عندما بدأت حرب اكتوبر (تشرين الاول) . فمصر وسوريا ليستا من الدول المصدرة للبترول ، وكان الرئيس السادات- كما رأينا، على حق في ما ارتآه من أن من الخطأ مطالبة الحكومات العربية الاخرى بالتعهد مقدماً باتخاذ اجراءات محددة . لكن أمله مع ذلك كان كبيرا في أن تسارع هذه الحكومات الى تقديم مساعدتها لمجرد بدء القتال .

وكانت شكلت في وزارة الخارجية المصرية هيئة خاصة عهد اليها بحث الامكانات المختلفة للاجراءات التي يمكن اتخاذها ، لكن اللجنة لم تقدم شيئاً يذكر. وشاء الحظ ان تقدم في الوقت المناسب، وقبل بضعة أيام من بدء القتال ، وثيقة لعبت دوراً مهماً ، في توجيه سياسة البترول العربية . وكان أصل هذه الوثيقة مشروعاً اعد في مركز الدراسات الاستراتيجية في " الاهرام " في ربيع ١٩٧٣ ، بدعوة وجهتها الى الدكتور مصطفى خليل نائب رئيس الوزراء السابق للصناعة والثروة المعدنية وأحد الاداريين النابغين، طلبت اليه فيها اعداد دراسة عن أزمة الطاقة في الولايات المتحدة وتأثيراتها على الدول العربية. وقبل الدكتور مصطفى خليل الدعوة بعد شيء من التردد ، واتصل بي تلفونياً يوم أول اكتوبر (تشرين الاول) ليقول انه انتهى من اعداد تقريره عن الدراسة، وقدم الي التقرير، وأطلعت بدوري الرئيس السادات عليه.

ولعلنا نذكر أن المهندس سيد مرعي مساعد الرئيس كان عين رئيسا للجنة كلفت مهمة تنسيق السياسة مع الحكومات العربية الاخرى . وقد اتصل سيد مرعي تلفونيا بالدكتور مصطفى خليل في الساعة الثامنة من مساء يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ليبلغه ان الرئيس طلب اليه اعداد مذكرة عن الطريقة التي يمكن بها استخدام سلاح البترول في الحرب ، كما طلب اليه أن يحصل مني على نسخة من تقريره (مصطفى خليل). واقترح سيد مرعي ان يتقابلا لتبادل الرأي . وفي أثناء المقابلة تبرع مصطفى خليل بأن يعد ملخصآ لتقريره من ١٢ صفحة يضمنه التوصيات التي يرى اتخاذها ، وأتم اعداد هذا الملخص في صباح اليوم التالي . وفي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم نفسه ٧ اكتوبر (تشرين الأول) عقد في وزارة الخارجية اجتماع بين الدكتور محمود فوزي والمهندس سيد مرعي والدكتور مصطفى خليل وانا ، لمناقشة سياسة البترول . وقد وافق الدكتور فوزي على تقرير الدكتور مصطفى خليل من دون اقتراح اية تعديلات تدخل عليه ، وتقرر في آخر نهار ذلك اليوم ايفاد الدكتور مصطفى خليل مع المهندس سيد مرعي في الرحلة التي كان مقررا ان يقوم بها سيد مرعي الى المملكة العربية السعودية ودول الخليج لشرح وجهة نظر مصر بالنسبة الى الحرب . وسافر كلاهما صباح يوم ٨ اكتوبر (تشرين الاول) على طائرة اليوشن مصرية كانت تقوم باجلاء المستشارين التشيكيين والالمان الشرقيين – الذين فاجأتهم الحرب وهم في مصر – عن طريق جدة . ومن هناك سافرا الى الرياض على طائرة خاصة .

وكانت وجهة النظر الني تضمنها تقرير الدكتور مصطفى خليل تقول ان البترول يجب ان يعتبر سلعة استراتيجية و اقتصادية ، لا سلاحاً في حد ذاته ، لأ نه لا يمكنه وحده ان يكسب حرباً ، وانما الممكن استخدامه كأداة مساومة سياسية ، خصوصاً أنه كان دائما يلعب دورا بارزا في سياسة وديبلوماسية الدول المستهلكة له ، وعليه، فلن يكون هناك جديد في استخدام العرب له كأداة سياسية . كذلك فان من المهم ، من ناحية أخرى ، الا تحاول الدول المنتجة للبترول مناصبة الدول المستهلكة له العداء ، على رغم حق الدول المنتجة في المطالبة بمقابل معقول . واذا كان العرب يقدمون الى دولة ما سلعة استراتيجية- الزيت- ويحصلون في مقابل ذلك على سلعة استراتيجية أخرى- السلاح- فان من حقهم أن يتوقعوا لتبادل السلعتين استمرار تدفقه، سواء أكانت هناك حرب مع اسرائيل ام لا . فاذا ما اوقف شحن السلاح، فان تصدير البترول يوقف أيضاً . وتضمن التقرير أيضاً أن علينا ان ندرس مواقف الدول الاخرى ونضع سياساتنا على أساس تلك المواقف . فاذا كانت هذه الدول تعارض حربنا ضد اسرائيل، وهي حرب نعتبرها حقنا المشروع لتحرير الاراضي العربية ، فان من حقنا ان نقف ضدها . واذا كنا لا نتوقع من اوروبا أن تؤيدنا في هذه الحرب ، فان من حقنا عليها الا تظهر لنا العداء ، بل أن من المعقول ان نتوقع من حكومات اوروبا الغربية واليابان ممارسة الضغط على الامريكيين لتذكيرهم بأهمية البترول العربي لديهما.

اضافة الى ذلك فقد تضمن التقرير ضرورة وجود اتفاق حول الاسعار والانتاج . فالبترول، كسلعة اقتصادية، يجب أن يتمشى سعره مع سعر مثيلا ته من مصادر أخرى للطاقة ، لا أن يفترض فيه أن يظل أقل منها دائما . كذلك فان على الدول المنتجة للبترول الا تزيد انتاجها الى أكثر من المعدل الذي يهيىء لها استخداماً معقولاً لارباحها . وامتلاك الحكومات العربية لفائض من العملات الورقية لا بد على المدى الطويل من أن يلحق الضرر باقتصاديات الغرب ، فضلا عن انه لا يفيد العرب انفسهم فائدة حقيقية. ويجب ان يكون الاتفاق والتفاهم بين المنتجين والمستهلكين هما الهدف، فلا يقوم اي من الطرفين باجراء مفاجىء او أجراء فردي ضد ا لطرف الآخر.

تلك كانت خلاصة وجهة النظر التي عرضها المصريون على الملك فيصل وقد عقد الاجتماع الأ ول في مكتب الملك فيصل في القصر الملكي في الرياض ، وحضره من الجانب السعودي مع الملك فيصل كل من الامير فهد والسيد رشاد فرعون . وحضره من الجانب المصري المهندس سيد مرعي والدكتور مصطفى خليل والعقيد سعد القاضي الذي عرض في الاجتماع خرائط توضح تقدم المعركة. وكان الملك يصغي بصمت تام الى الشرح الذي قدمه سيد مرعي ومصطفى خليل، مكتفيا بهز رأسه بين الفينة

والفينة. كما كان شديد الاهتمام بالتحليل الذي قدمه العقيد سعد القاضي، ووجه له خلا له عديداً من الاسئلة من بينها : هل سنتقدم الى الممرات ؟ ولماذا لم نحتل جنوب سيناء ؟ الخ ...

وعقد اجتماع آخر في الساعة الثامنة مساء بعد تناول طعام الافطار (كان ذلك في رمضان) بدا فيه الملك أكثر انشراحاً، واقبالا . وكان مما قاله : " لقد جعلتمونا نحس جميعا بالفخر الشديد . كنا من قبل عاجزين عن رفع رؤوسنا، أما الآن فاننا قادرون على رفعها . انكم اديتم واجبكم وتحملتم الكثير في تأديته. وقد دمرت مدنكم. وأقل ما يمكن أن تفعله الدول العربية هو أن تساعدكم بالمال وبما تستطيع ان تقدمه اليكم مما تملكه من سلاح وعتاد ". ووعد ساعتها بأن يقدم الى مصر هدية عاجلة قدرها ٢٠٠ مليون دولا ر ، وقال أن وحدات من الجيش السعودي ستتوجه الى الجبهة السورية. وأضاف : " اننا لا نقدم اليكم احساناً ، وما نقدمه اليكم من مال هو أقل بكثير مما تقدمونه انتم من تضحيات بالارواح وغيرها ".

وأعرب الملك عن موافقته التامة على السياسة كما حددها سيد مرعي ومصطفى خليل . وقد حرص الجانب المصري على أن يؤكد ان مصر لا تحاول فرض اية سياسة على الدول المنتجة للبترول ، وأنه اذا رأت السعودية أن تطبق ما جاء في التقرير من توصيات، يمكنها ان تطبقها بالطريقة التي تحقق لمصالحها القومية ولمصالح العالم العربي أكبر الفائدة . وشدد على الحاجة الملحة الى منع تكوين جبهة مشتركة من الولايات المتحدة وا وروبا ا لغربية واليابان . وأ قترح ، لتحقيق ذلك ، اصدار بيان بضمان استمرار تدفق البترول الى اوروبا الغربية واليابان ، شرط عدم قيامهما بأي اجراء يلحق الضرر بالعرب ، مع توجيه تحذير، في الوقت نفسه، بفرض حظر البترول على أية دولة تتخذ أجراء يضر بالعرب. كذلك فقد أعرب الجانب المصري عن اعتقاده أن انتاج البترول يجب ان يجمد عند معدلاته الحالية ، كتحذير عام بأن سلاح البترول اصبح موضع بحث ، فإذا لم يلق هذا التحذير استجابة اتبع بخفض صغير لمعدلات الانتاج . اضافة الى ذلك فقد تناولت المناقشة بحث الاجراءات الاشد فعالية ومنها الاجراءات الاقتصادية التي يمكن ان تطبق ضد الولايات المتحدة كتأميم ممتلكاتها في العالم العربي ، ، وعقد اتفاقات مباشرة بين الدول العربية المنتجة للبترول والدول المستهلكة له في اوروبا الغربية واليابان (مستبعدة بذلك الشركات الامريكية التي تقوم بدور الوسيط) . وقد ذكر الدكتور مصطفى خليل ان فرض الحظر على الولايات المتحدة لن يكون له تأثير في الوقت الحاضر ، وان كان من الممكن ان يبقى عامل تهديد متزايد حتى سنة ١٩٨٠ حين تتوافر المصادر البديلة للوقود في امريكا. وقد سأل الملك فيصل عن الخطوات العاجلة التي يوصي باتخاذها ، فرد الجانب المصري أنه يرى استدعاء القائم بالاعمال الاميركي وتقديم شرح موجز اليه عما تمت مناقشته في هذه الاجتماعات، واصدار تعليمات لوزير الخارجية السعودي الموجود في واشنطن في ذلك الوقت بأن يقابل الرئيس نيكسون ويقدم اليه شرحا مماثلا . وقد عمل الملك بالتوصيتين . وسأل : " وماذا عن صديقنا الليبي ؟ .. ما الذي اعطوه لكم ؟ " .. ورد سيد مرعي ان القذافي قدم الى مصر ٤٠ مليون دولار و٤ ملايين طن من البترول الخام . وقال الملك : " هذا لايكفي . وكان من الافضل لهم لو انفقوا اموالهم على المعركة بدلا من ان يثيروا بها المشاكل في البلاد العربية الاخرى " .

وفي اليوم التالي توجهت البعثة الى الكويت حيث قابلت اميرها الذي اصغى اليها باهتمام بالغ ، وقال ان مسألة المعونة المالية يجب تعرض على مجلس الوزراء . كذلك ابدى رؤساء كل من قطر وابوظبي وعمان التي زارتها البعثة بعد الكويت اهتماما مماثلا . وفي البحرين قابلت البعثة اميرها أولا ، ثم اجتمعت مع مجلس وزرائه أكثر من ساعتين دارت خلالهما مناقشات حية اظهر البحرانيون فيها اهتماما خاصا بفهم كل ما يمكن ان يترتب على الموقف الجديد من آثار :
ولمجرد ان انتهت بعثة سيد مرعي ومصطفى خليل من مهمتها اجتمع وزراء البترول العرب في الكويت (يوم ١٣ اكتوبر (تشرين الاول)) لتنسيق السياسة البترولية من اجل الحرب ، وكانت اولى التقارير التي تلقتها مصر تقول ان وزراء البترول العرب سيقررون – بناء على توصية من السعودية – خفضا في الانتاج بنسبة ١٥ في المائة . واعتبر الرئيس السادات هذه الخطوة بمثابة تضحية كبيرة من

جانب الدول البترولية (والحقيقة انها لم تكن كذلك) وطلب ان تخفض النسبة الى ٥ في المائة فقط . وفي الوقت نفسه فإن الوزراء طالبوا بزيادة ضخمة في اسعار البترول الخام ، وهو ما لم تطالب به مصر ابدا ، بينما لم يأخذوا بأي من التوصيات التي اوصت بها البعثة ، وكانت النتيجة الوحيدة : زيادة مذهلة في الاسعار وخفضا معتدلا في الانتاج ، وهي نتيجة لم يكن من الممكن ان تحقق لشركات البترول الامريكية افضل مما حققته .

وعلى رغم ان النسبة التي اتفقت عليها الدول المنتجة للبترول للخفض من الانتاج كانت ٥ في المائة فقط ، فإن بعض الحكومات العربية خفضت انتاجها بصورة مؤقتة بنسبة ٢٥ في المائة . وترتبت على ذلك حالة من الذعر سادت الغرب ، تماما كحالة الذعر التي سادته لفرض الحظر على الدول التي اعتبر العرب موقفها معاديا لهم ، كالولايات المتحدة وهولندا . وكانما لفت النظر ان الحظر لم يكن له الا اقل التاثير على الدول التي استهدفتها – باستثناء التأثير النفسي بطبيعة الحال – واذكر اني سألت الشيخ يماني ، وزير البترول السعودي ، عن الطريقة التي يطبق بها الحظر ، فقال ان الدول المنتجة للبترول تطلب الى ربان كل ناقلة بترول ان يقطع على نفسه عهدا بألا يفرغ شحنته في أي بلد خاضع للحظر . وكان هذا هو كل شيء ! وقال : " وماذا نستطيع ان نفعل غير هذا ؟ " . وبطبيعة الحال ، كان هناك بين ربابنة الناقلات من قطعوا على انفسهم العهد واخلفوه ، بينما كان هناك غيرهم يقومون بتفريغ حمولاتهم في بلد كلندن مثلا ، ومنها تنقل فى ناقلات اخرى الى روتردام . كذلك فان الامدادات نظمت بطريقة تكفل للدول الخاضعة للحظر الحصول على احتياجاتها من البترول من دول لاتطبق الحظر مثل نيجيريا . وربما كانت النفقات في مثل هذه الحالة أكثر قليلا ، لكنها لم تكن لتهم شركات البترول ، لأنها- كالعادة- كانت تحمل الزيادة للمستهلك .

و من التناقضات الغريبة انه في الوقت الذي كان المفروض ان تكون هناك ازمة طاقة في الولايات المتحدة ، وفي الوقت الذي كان المفروض ايضا ان تخضع الولايات المتحدة فيه لمقاطعة بترولية عربية ، فان ارباح شركات البترول الامريكية سجلت ارقاما لم يسبق لها مثيل . وقد قدر نصيب العرب من ارتفاع اسعار البترول عام ١٩٧٤ بنحو ٦٠ ألف مليون دولار. اما شركات البترول ، فانها، اضافة الى نصيبها من ارتفاع اسعار البترول ، تحصل من عملياتها البترولية الاخرى (التكرير والتسويق وغيرهما) على ٧ دولارات تقريبا في مقابل كل دولا ر تحصل عليه الدول المنتجة . وفي هذا ما يعطي فكرة عن النفوذ الخيالي الذي تتمتع به شركات البترول في عصرنا هذا .

وهكذا... فان الشركات الامريكية لم تكن لتحلم بنتيجة افضل من هذه النتيجة. فقد استطاعت بمضاعفة اسعار البترول من جانب الدول المنتجة - الذى تم بتشجيع منها من دون طلب من مصر- ان ترتفع بارباحها الى مدى الصواريخ . وتمكنت في الوقت نفسه من ان تعرض على الدول المنتجة طبق "المشاركة " الذهبي . وكان معنى هذا بالنسبة اليها ان يرتفع سعر البترول داخل الولايات المتحدة الى النقطة التي ظلت شركات الطاقة تسعى اليها والتي تكفل لا ستغلال المصادر الاخرى للطاقة ان يكون مجزيا من الناحية الاقتصادية. وكان الرأي العام في امريكا مستعداً - وسط الحيرة التي سيطرت عليه في جو الأ زمة- لأن يبتلع زيادة السعر، وأن يتغاضى عن قانون البيئة الذي كان يرفض التغاضي عنه قبل اكتوبر (تشرين الأول) . اما بالنسبة الى الكثير من الدول العربية، فان ذلك كان يعني انتفاخا في الدخل تستخدمه اما في مشروعات باهظة الاكلاف ولا مبرر لها ، كنظم دفاع واسعة النطاق ضد اعداء غير معروفين، واما تعيدها الى الاقتصاد الامريكي عن طريق استثمارها فيه . وفي كلتا الناحيتين، فان الولايات المتحدة هي الفائزة .

وقد فرض حظر البترول في اللخظة المؤاتية تماما للولايات المتحدة ، لكنه كان ، اضافة الى مضاعفة السعر، ضربة قاصمة لا قتصاد القوتين المنافستين لامريكا وهما : اوروبا الغربية واليابان . فقد كانت الولايات المتحدة تواجه قبل فرض الحظر مشكلة في ميزان مدفوعاتها . وكان الدولا ر ضعيفا ، لكن

مشكلة ميزان المدفوعات تحسنت بعد ذلك ، كما تحسن موقف الدولار كثيرا . لقد صدرت الولايات المتحدة التضخم الذي كانت تعاني منه الى اوروبا الغربية واليابان بارغامهما على شراء البترول باسعاره المتضخمة ، ودفع ثمن مشترياتها منه بالدولار .

واذا كان توقيت بدء فرض الحظر قد جاء مناسبا تماما لا مريكا ، فان توقيت رفعه كان مناسبا تماما لها ايضا . ذلك ان القرار الذي فرض الحر بموجبه كان محددا ، وكان يقضي بأن يبقى الحظر مفروضا الى حين الوصول الى اتفاق دولي على جدول زمني للانسحاب من كل الاراضي العربية المحتلة ، بما فيها القدس العربية ، لكن ذلك كله ضاع في طي النسيان . فقد كانت البرقيات والرسائل تنهال يوميا من الرئيس نيكسون وهنري كيسينجر على الرئيس السادات والملك فيصل ، وتقول ان من المستحيل على الحكومة الامريكية ان تصل الى أي شيء مع الكونجرس او الصحافة او الرأي العام – او مع اسرائيل – ما لم يرفع الحظر من دون قيد او شرط . ووجد الرئيس السادات والملك فيصل انهما مضطران امام هذه الظروف الى الاستجابة ، قبل ان يتحقق أي هدف من اهدافهما .

وهكذا يصبح الموقف الامريكي الآن واضحا تماما ، ومن الممكن ان يكشف عن نفسه اكتر واكثر بالنسبة الى مستقبل ديبلوماسيته البترولية . ان هذا الموقف يبدأ من نقطة ان العرب شعب عاطفي، لا يستقر على حال ، ولا يمكن ان يكون موضع ثقة ، الأمر الذي لا بد معه للدول التى تعتمد على البترول العربي من ان تحتفظ لنفسها بجبهة مشتركة فى التفاوض معهم . ومثل هذه الجبهة المشتركة يمكن ان تتحقق من ورائها فائدة اخرى من حيث انها لا تشجع الاتحاد السوفييتي - وهو نفسه فى موقف قوي بالنسبة الى الطاقة كالولايات المتحدة - على مهاجمة اوروبا غربية تكون ضعيفة، كما انه لا يشجع اوروبا الغربية الضعيفة على التطلع الى الاتحاد السوفييتي في طلب معونته لحل مشاكل الطاقة التى تواجهها .

ومن هذا كله، يتضح ان العرب لم يلعبوا اوراقهم على الوجه الصحيح . فقد اصدروا قرارا بخفض في الانتاج من دون تمييز، وبرفع في السعر افادت منه الشركات صاحبة الامتياز اكثر مما افادت منه الدول المنتجة للبترول ، وفرضوا حظرا على تصدير البترول بغرض تحقيق اهداف سياسية محددة ، ثم رفعوا الحظر قبل ان يتحقق اي هدف من هذه الاهداف ، او حتى اي جزء منها. وكل ما يمكن قوله في مصلحتهم ، ان العالم رأى العرب يتصرفون لأول مرة بانسجام ، كما رأى البترول يستخدم- ولو بغير تنسيق- كسلاح سياسي . وبذلك اصبح البترول عاملا له وزنه ، ولا بد من وضعه موضع الاعتبار في ميزان القوى العسكرية والسياسية في نزاع الشرق الاوسط . وهذه حقيقة لم يكن لها وجود قبل حرب اكتوبر (تشرين الاول) .

وهناك امور معينة لا بد للعرب ان يتخذوا منها اهدافا يعملون على تحقيقها في المستقبل . ان عليهم ان يعملوا بأي ثمن لمنع تشكيل جبهة مشتركة من الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان ، وخيروسيلة لذلك هي ضمان سد احتياجات اوروبا الغربية واليابان من موارد الطاقة البترولية . وليس هناك ما يتعارض مع مصالحهم اكثر من ان يجعلوا من المستهلكين الرئيسيين لسلعتهمالرئيسية – وهي البترول – اعداء دائمين . ولا بدمن ان تكون هناك اجراءات دائمة للمنفعة المتبادلة تشمل معدلات الانتاج والاسعار بين منتجي البترول ومستهلكيه ... تماما كما هي الحال بالنسبة الى السلع الرئيسية الاخرى .

ويجب على العرب كذلك الا تلهيهم امور جانبية كالتأميم او المشاركة . فلو انهم كانوا فرضوا ضريبة على الصادرات أو غيروا نسبة الربح المقسم بين الحكومات والشركات بدلا من ان يضاعفوا سعر البترول ، لكانوا توصلوا الى معادلة افضل ، وكان في امكانهم ان يطبقوا معادلة اخرى تقوم على اساس زيادة في السعر نسبتها ٦٥ في المائة مصحوبة بتجميد لدخول شركات الامتياز ، وهي المعادلة التي طبقتها فنزويلا ، ثم ان عليهم ايضا ان يعملوا لكي تتم الاتفاقات دائما بين الدول المنتجة للبترول والدول

المستهلكة له ، وبذلك يبعدون الوسيط الامريكي ويضعون حدا للارباح الخيالية التي تجنيها الشركات الامريكية ، وللاستنزاف المستمر الذي تتعرض له اوروبا بالنسبة الى احتياط الدولار .

وهكذا ... فاننا اذا تساءلنا عمن خرخ منتصرا في اول استخدام للبترول كسلاح ، فلا بد ان يكون الجواب : انها الولايات المتحدة . ولقد كنا حتى الآن نفكر فى عالم تواجه فيه القوتان العظميان- وهما الولايات المتحدة و الاتحاد السوفييتي- تحديا من جانب ثلاث قوى جديدة هي : اورو با الغربية و اليابان والصبن . لكن الموقف تغير بعد عام ١٩٧٣. فقد تضاءل التحدي الاوروبي الغربي والياباني تماما، في حين ظل التحدي الصينى على الهامش كما كان حاله دائما .

و فى النهاية فان الامريكيين هم الذين قرروا ان خير سعر يحدد للبترول ويكون مناسبا لهم هو السعر الذي يراوح معدله بين ما كان مطبقا قبل الحرب وبين معدل يقل عن المعدل الذي رفعته اليه الدول المنتجة للبترول بعد الحرب . لذلك فانهم شددوا على اوروبا في محاولاتهم لضمها الى صفهم .

ولا شك في ان النتيجة ستكون مؤسفة للعرب اذا انضمت اوروبا الى المعسكر الامريكي في صراع البترول . ولكن ايا كان ما سيحدث ، فان مما لا شك فيه ان عملاقي الطاقة في العالم وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي – بدرجة اقل – هما اللذان اوقفا الحرب ووضعا صيغة السلام ... لو قدر للسلام ان يتحقق ابدا .

*****